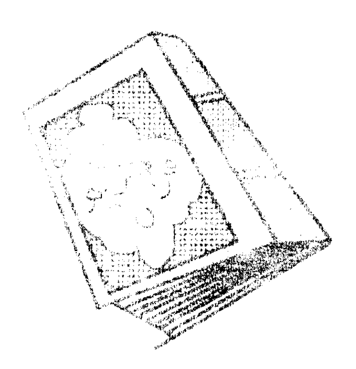
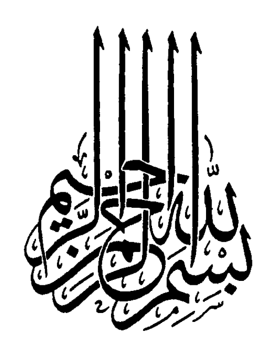
القصص القرآنى

إقناع - وإبداع



تأليف

الشيخ/ السيد عبد المقصود عسكر


بسم الله الرحمن الرحيم

القصص القرآني

إقناع - وإبداع

1420 هـ ـ 2000 م

* الكتـــــاب : **القصص القرآنى** (إقناع ـ وإبداع)
* الـكــاتــب : **الشيخ / السيد عبد المقصود عسكر.**
* الطبـــعـــة : الأولى 2000.
* الناشـروالتـوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

تليفاكس : 3305538 ـ 3321744 / 040

☎ : 2228277 ـ 2210907 / 040

أصالة للتجارة والتسويق ـ الزقازيق

تليفاكس : 353988 / 055

* التـجـهـيـز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس : 2228277 / 040

* الإيداع القـانونى : 15437 / 99
* التـرقـيم الدولى : I. S. B. N 977 - 278 - 143 - 3

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً يوافى نعمه ويكافىء مزيده ، والصلاة والسلام على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أيده ربه بالمعجزات العديدة والآيات الباهرة الفريدة ، وخلد ذكره على طول الأيام والليالى المديدة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له بديع السموات والأرض ، مرسل الرسل ومنزل الكتب لهداية الخلق كى يقوموا بوظيفة الخلافة فيعبدوا الله ويعمروا الأرض .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ختم الله به الرسل بعد أن بشروا به ، ومهدوا له ، وأمروا أقوامهم ـ إن أدركوه ـ أن يؤمنوا به ويصدقوه ، وينصروا دعوته ويؤازروه ، مصداقاً لقوله ـ سبحانه ـ ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1] .

صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين الهداة المهديين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، وعلى أتباعه السائرين على هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ حين أمر آدم وحواء أن يهبطا إلى الأرض لم يكن ذلك لذنب ارتكباه فقد غفر لهما الله بعد أن علمهما كيف يتوبان وهو التواب الرحيم إنما أهبطهما الله إلى الأرض لكى يقوما بواجب الخلافة على وفق علمه القديم ووفاء بمراده الحكيم وزودهما الله بالخبرة النافعة والهداية النيرة الساطعة التى تهدى السبيل وتنير الطريق ، ووعدهم وذريتهم ـ إذا استقاموا على هديه ـ أن يحصلوا على الأمن والسرور والسعادة والحبور فى الحياة الدنيا ويوم البعث والنشور ، فقال ـ سبحانه ـ ﴿ . . **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ**

(1) آل عمران : 82 ـ 81 .

أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (1) .

وقد حقق الله وعده وأنجز عهده بعد أن أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولم تخل أمة من رسول أرسل إليها مصداقاً لقوله ـ سبحانه ـ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (2) .

وحتى تكون حجة الرسل قاطعة وأدلة صدقهم ساطعة فقد أيدهم الله بالمعجزات الخارقة التى تقوم مقام قوله ـ سبحانه ـ : صدق عبدى فيما يبلغ عنى وذلك حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

وكانت المعجزة الكبرى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحياً يتلى ، وكتاباً يقرأ ويكتب تحدى به محمد النبى الأمى أرباب الفصاحة والبلاغة من العرب كما تحدى به أهل الكتاب وغيرهم من الإنس والجن ، وقد ضمن الله بقاء هذا الكتاب وحفظه حتى يظل التحدى به باقياً ومستمراً إلى يوم القيامة ويبقى نوره وسناه مشعاً وهادياً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ليتناسب ذلك مع طبيعة الرسالة الخاتمة التى بعث الله بها محمداً وجعله خاتم النبيين .

وقد وصف الله كتابه الحكيم بأوصاف كثيرة على رأسها أنه كتاب هداية وإرشاد وقد تكرر هذا الوصف فى آيات كثيرة .

منها قول الله ـ تعالى ـ : ﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (3) .

ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ . . ﴾ (4) .

---

(1) طه : 123 ـ127 .
(2) فاطر : 24 .
(3) البقرة : 1 ـ 2 .
(4) البقرة : 185 .

ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (1) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2) .

ولتحقيق هذا الهدف النبيل سلك القرآن الكريم سبلاً متعددة كلها توصل إلى هذا الهدف وتحقق تلك الغاية .

منها لفت الأنظار إلى بديع صنع الله فى خلقه ودلائل قدرته فى ملكه وأمارات لطفه بخلقه وعظيم حكمته وجزيل إحسانه ونعمته ، وذلك كثير فى القرآن الكريم ومنها عرض قصص الأولين وتاريخ الأقوام الغابرين لكى يتعظ اللاحقون بالسابقين ويعتبر السامعون بما جرى للماضين ، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (3) .

والعبرة تأتى عن طريق التأمل فيما جرى ومعرفة مصير المكذبين وعاقبة المؤمنين وكيف كانت نهاية الطغاة والظالمين ، وكيف نصر الله القلة من المؤمنين على الكثرة من الكافرين ، وغير ذلك .

وإلى بعض هذه العبر والدروس جاءت الإشارة فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (4) .

كما وردت الإشارة إلى شىء من ذلك فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ حيث يقول الله تعالى : ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى

(1) الإسراء : 9 ـ 10 .
(2) الشورى : 52 .
(3) يوسف : 111 .
(4) الفجر : 6 ـ 14 .

كَذَّبُون (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) .

كما وردت الإشارة إلى شىء من ذلك فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون حيث يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (2) .

وذلك كثير فى القرآن الكريم .

لهذا كله فقد أخذت القصة مكاناً بارزاً فى القرآن الكريم على أساس أنها إحدى الوسائل الهامة فى التوجيه والتأثير والتربية والتعليم .

ولأن القرآن الكريم عنى بالقصة هذه العناية فقد اتجهت همة فريق من الباحثين والدارسين إلى البحث والكتابة فى قصص القرآن بعامة ـ واتجهت همة آخرين إلى الكتابة فى قصص الأنبياء كما جاءت فى القرآن بخاصة ـ كما عنى جماعة من الباحثين بالكتابة حول قصص الأنبياء فى القرآن مقارنة بما جاء فى التوراة ليبرزوا من خلال ذلك فضل القرآن الكريم وصدق حديثه ودقة الأخبار الواردة فيه وبعض الباحثين كتبوا حول الجمال الفنى والأدبى فى القصة القرآنية وغير ذلك .

وقد شاء الله لى أن ألج بعض هذه الأبواب ـ على استحياء منى ـ فكتبت بحثاً حول القصة فى القرآن الكريم تم نشره فى أعداد من مجلة « الفكر الإسلامى » اللبنانية منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً حين كنت وكيلاً ـ ثم رئيساً ـ لبعثة الأزهر الشريف فى لبنان .

وذلك تحت عنوان « أحسن القصص ، دراسة حول القصة فى القرآن الكريم »

---

(1) الشعراء : 116 ـ 122 .
(2) الشعراء : 61 ـ 68 .

وكنت أشعر أن ذلك البحث فى حاجة إلى إضافة ما لكى يخرج إلى الناس فى شكل كتاب يكون أكثر نفعاً وأعظم إفادة .

ومضت سنوات ، حتى وفقنى الله فى هذا العام إلى كتابة البحث الثانى المتصل بالموضوع نفسه ، والذى أعده مكملاً للموضوع الأول ومرتبطاً به بنسب القرآن الكريم ، كتاب الله الذى ضمن الله له البقاء والحفظ وهذا البحث الثانى تحت عنوان « القصص القرآنى من دلائل النبوة » فلما تم ذلك ـ بفضل الله ـ عدت لضم البحثين معاً فى هذا الكتاب الذى بين يديك أيها القارئ الكريم . وجعلته تحت عنوان « **القصص القرآنى إقناع وإبداع** » .

أسأل الله ـ سبحانه ـ أن يتقبله فى الأعمال الصالحة ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه خير من سئل وأكرم من أعطى ، وصلى الله على سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين .

الشيخ / السيد عبد المقصود عسكر
الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف ـ سابقا

أهمية القصة وتأثيرها

كان القصص ـ ولا يزال وسيبقى ـ من أهم وسائل التأثير والتغيير فى النفس البشرية ، ومن أعظم أدوات التعليم والتربية فى المجتمع الإنسانى كله .

ولازلنا جميعاً نذكر تلك الحكايات التى كانت تحكيها لنا جداتنا أو أمهاتنا قبل النوم فنسرح معها بخيالنا الغض الطرى ، وترف علينا أجنحة السعادة حتى يغلبنا النوم ونحن فى غاية النشوة والهناء .

وتمر الأيام ويكبر الصغار وتتغير فى حياتهم أشياء كثيرة ، ولكن حب القصة والشغف بمتابعة أعمال شخصياتها وما يجرى من أحداث لا يتغير ولا يتبدل .

وأنت ترى الصغار والكبار ـ على سواء ـ ينكبون على قراءة القصة وتستغرقهم أحداثها حتى ينسى الواحد منهم طعامه وشرابه لبضع ساعات وهو بذلك هانئ سعيد .

بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن حب القصة يكون لدى الكبار أعظم وتأثيرها فيهم أتم وأكمل ، فحين يبدأ الإنسان الدخول فى أول مراحل النضوج العقلى والنفسى والوجدانى يروح يقلب عقله وفكره فيما يرى ويسمع ويقرأ باحثاً لنفسه عن مثل وقدوة يقتدى به ويتأسى ، وهو يبحث عن ذلك فيمن حوله من أشخاص ينتمى إليهم كالوالدين ، أو يعاشرهم كالأصدقاء والأساتذة والزملاء ، أو يقرأ عنهم فى التاريخ والقصص كالقادة والزعماء .

ولهذا كان من الواجبات الملقاة على عاتق الآباء والأمهات أن يصلحوا من سلوكهم هم أولاً إن كانوا يريدون لأولادهم حياة طيبة ، دستورها الأدب الرفيع والخلق العالى ولهذا السبب نفسه فإن كل مجتمع يبحث عن العزة والكرامة ويتطلع إلى المجد والسيادة عليه أن ينظف نفسه من كل مظاهر الفساد والانحراف حتى لا ترى الشبيبة الباحثة عن الأسوة والقدوة فى محيطها إلا كل جليل وجميل ، وعلى المجتمع كذلك أن يسلط الأضواء على النماذج الممتازة من تاريخ الأمة وشخصيات المجتمع ومُثُل الهداية فى التاريخ الإنسانى كله .

تلك الشخصيات التى تتجسد فيها صفات المروءة والشجاعة ، والكرم والسماحة ، والنجدة والتفانى فى الدفاع عن الحق ونصرة المستضعفين ، وتلك التى تتميز بالسبق الفائق فى مجالات الحياة التى تعود بالنفع على الإنسان وترفع شأنه عند الله وعند الناس .

وعلى المجتمع كذلك أن يغض الطرف عن مظاهر الشذوذ والانحراف ولا يبرزها وأن لا يكشف عن مظاهر العوج وصور الفساد إلا بمقدار ما يبغض فيها وينفر الناس منها ذلك لأن الإنسان مقلد بطبعه فإن عرض عليه الحسن بطريقة حسنة أحبه وقلده ، وإن عرض عليه القبيح وتكرر عرضه بطريقة مؤثرة تأثر به وانجذب إليه وقلده كذلك ، ولعله لهذا السبب وغيره اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفراً من خيرة خلقه فضلاً وخلقاً وأدباً وسلوكاً فجعلهم رسله الذين يحملون تعاليمه إلى بقية خلقه ويقول سبحانه : ﴿ . . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . ﴾ (1) .

ويقول عز من قائل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (2) .

ولقد كان هؤلاء الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أعظم المربين والمعلمين ، والمتأمل فى حياتهم وسيرتهم العطرة يرى أنهم كانوا يربون ويعلمون بأعمالهم وأخلاقهم وحسن أدبهم أكثر مما كانوا يربون ويعلمون بخطبهم وأقوالهم وإصدار الأوامر إلى أتباعهم .

وإنك لترى هذا المعنى واضحاً فى قول الله ـ تعالى ـ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ (3) .

وفى قوله ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ . . . ﴾ (4) .

(1) الأنعام : 124 .
(2) الحج : 75 .
(3) الأحزاب : 21 .
(4) الممتحنة : 4 .

وفى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ . . ﴾[1]، وفى غير ذلك من الآيات .

(1) الصف : 14 .

عناية القرآن الكريم بالقصة

ولما كان من طبيعة الإنسان أن يستجيب للتوجيه مقتدياً بمن أحبه ، وأن ينفر من سلوك طريق سلكه شخص يبغضه ، ولما كانت القصة من أقوى الوسائل التى يمكن بواسطتها تصوير المثل الأعلى المحبوب فى صورة شخص يقتدى به فى خلقه وسلوكه أو تصوير سبيل الشر والضلال فى صورة شخص كريه يعمل الشر ويمضى فى طريقه إلى نهايته المحتومة وهى الهلاك والدمار .

لما كان هذا شأن الإنسان وكان هذا شأن القصة بشخصياتها وأحداثها فإن القرآن الكريم ـ وهو المعنى بشأن الإنسان هداية وإرشاداً وتوجيهاً ـ قد ركزعلى القصة تركيزاً كبيراً واعتنى بها عناية فائقة .

وحين نقرأ القرآن الكريم نلمس بوضوح أن القصة فيه قد أخذت حيزاً كبيراً ، وبلغت شأواً عالياً وارتقت إلى درجة لا تدانى ولا تبارى ، وكيف تدانى أو تبارى وهى جزء من كلام الله ـ عز وجل ـ ، وهو كلام : ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾[1] .

وينبغى أن نعلم أن القرآن الكريم كتاب دعوة دينية وهداية ربانية قبل كل شىء والقصة فيه هى إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها والانتفاع بهذه الهداية وبلوغها .

---

(1) فصلت : 42 .

قصص القرآن أحسن القصص

والقصة ـ عموماً ـ تكون حسنة بمقدار ما تجمع من خصائص ومزايا فنية وأدبية وبمقدار ما تحوى من أهداف تربوية وتوجيهية ، وبمقدار ما تحسن من عرض هذه الأهداف وتعمل على تحقيقها فى حياة الناس وتطبيقها فى المجتمع .

وقد يقول البعض إن تحقيق ذلك يستدعى ضرورة مزج الحقيقة بالخيال وخلط الواقع بالمثال وإنه بدون ذلك لا يمكن أن تكون القصة شيقة مرغوبة مؤثرة وهادفة فى آن واحد ، وإنه من المستحيل أن تجمع قصة كل الخصائص والمزايا الفنية والجمالية فى الوقت الذى تلتزم فيه بعرض الوقائع مجردة عن الإضافات المخترعة وفى الوقت الذى تلتزم فيه بعرض الأشخاص كما هم بكل تصرفاتهم وأقوالهم وأحاسيسهم ومشاعرهم دون زيادة أو نقصان .

قد يقول البعض ذلك ، وقد يكون محقاً فى قوله عندما يكون الأمر متعلقاً بنا ، وعندما يكون الحديث عن قدراتنا ومواهبنا ، أما عندما يكون الأمر متعلقاً بذات الله ـ سبحانه ـ وبقدرته وكانت القصة من كلام الله العليم الحكيم فهنا يكون الإعجاز حيث تحوى القصة جميع الخصائص الفنية ، وتجمع كل المزايا الجمالية ، وتضم العديد من الأهداف الواضحة المحددة مع الالتزام الكامل بعرض الوقائع دون تزيد أو اختراع والحديث عن الأشخاص كما كانوا وذكر ما قالوا دون تقوُّل أو ابتداع .

ولهذا كان القصص القرآنى أحسن القصص

وإذا كان باستطاعة الموهوبين من عباد الله أن يصنعوا قصصاً حسناً فليس باستطاعة غير الله أن يصنع ذلك القصص الأحسن بتلك المواصفات التى ذكرنا بعضها آنفا والتى سنذكر بعضاً منها فيما بعد : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (1) .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (2) .

كما روى ابن جرير بسنده عن المسعودى عن عون بن عبد الله قال : ملَّ

(1) النمل : 88 . (2) يوسف : 3 .

أصحاب رسول الله مَلَّة فقالوا : يارسول الله حدثنا ، فأنزل الله : ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ . .** ﴾ (1) . ثم مَلُّوا مَلَّة فقالوا : يارسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ . .** ﴾ (2) فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص (3) .

وهذا يعني أن في القرآن الغناء والكفاية والشفاء ، مصداق ذلك قول الله ـ تعالى ـ ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (4) .

ومما يؤكد هذا ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فغضب ، وقال : **«أمتهوكون (5) فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا وسعه إلا أن يتبعنى »** .

وفى رواية له عن عبد الله بن ثابت أن عمر جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عبد الله بن ثابت : ألا ترى ما بوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسرى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : **« والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين »** (6) .

(1) الزمر : 23 .
(2) يوسف : 1 ـ 3 .
(3) تفسير ابن كثير : الآيات الأولى من سورة يوسف .
(4) النحل : 89 .
(5) المتهوك : هو المتحير المتردد ، قال في القاموس المحيط : المتهوك . المتحير الساقط في هوة الردى . والتهوك : التحير والوقوع في الشىء بغير مبالاة .
(6) تفسير الآيات في ابن كثير .

القصة فى التوراة والقرآن

إننا حين نتصفح التوراة الموجودة حالياً فإننا نجد فيها الكثير من القصص الذى يذكر أخبار الأنبياء السابقين وسيرتهم وتصرفاتهم مع أقوامهم وتصرفات أقوامهم معهم وذلك ما نجده أيضاً فى القرآن الكريم مع اتفاق فى بعض المواضع واختلاف فى بعض آخر ، وذكر لبعض الوقائع هنا وسكوت عنها هناك وبالعكس .

فمن أى المصدرين نأخذ ؟ وعلى أى الكتابين نعتمد ؟

بادىء ذى بدء - وللوهلة الأولى - يدرك كل باحث منصف أن القصة فى التوراة لا تتمتع بأى مزايا فنية أو خصائص جمالية ، وتعتمد - فقط - على السرد المجرد ، وبأسلوب ركيك لا تشويق فيه ولا تأثير له ، بينما القصة فى القرآن الكريم على العكس من ذلك تماماً .

ومن ناحية أخرى فإن القرآن الكريم وصل إلينا بالسند المتصل المتواتر مما يدفع الباحث إلى الثقة فيما يذكر من الحوادث والوقائع على عكس التوراة التى انقطع سندها بإجماع الباحثين المحايدين الذين شهدوا بذلك ، ومنهم من هداه الله للإسلام فأسلم ، ومنهم من ظل يحوم حول حمى الإسلام يصده عن الدخول فيه شىء من متاع الدنيا وزينتها .

ولو فرضنا أن إنساناً ما ليست لديه خلفية عقدية من أى نوع ، شاء الله له أن يقرأ قصة من قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ثم قرأ نفس القصة فى التوراة ثم قارن بينهما بعقل متجرد عن الهوى وبصيرة متفتحة ، وقد تهيأ له أن يعرف المهمة التى اختار الله لها الأنبياء ، لخرج من هذه المقارنة بحكم لا شك فيه ولا تردد أن ما ورد فى القرآن الكريم هو الحق الذى لا مرية فيه ، وأن ما عرض فيه خاصاً بأنبياء الله ورسله هو اللائق بهم وبمنزلتهم عند الله ، وهو الذى يتناسب مع سمو الغاية التى كلفهم الله أن يعملوا لها ، وسيرى بوضوح أن ما دُون فى التوراة خاصاً بأئمة الهدى من رسل الله لا يليق بهم ولا يتفق بأى حال مع ما كلفوا العمل به والدعوة إليه من مُثل وفضائل .

ولو قيض الله لهذا الشخص ـ بعد ذلك ـ أن يقرأ قول الله ـ تعالى ـ ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ (1) .

لو حدث هذا فإن المتوقع أن يعترف هذا الشخص بسمو القرآن وصدقه ، وبأنه الحق مصداقاً لقول الله ـ تعالى ـ فى شأنه : ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** . . ﴾ (2)

ولو وقف معنا ـ هذا الشخص ـ خاشعاً أمام قول الله ـ تعالى ـ ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (3) .

وليقرأ من شاء قصة لوط ـ عليه السلام ـ فى التوراة (4) ، ثم يقرأ قصته فى القرآن الكريم (5) وسيرى هذا الذى قلناه ظاهراً للعيان .

وهل يصدق عاقل أن نبياً من أنبياء الله الأكرمين يشرب الخمر ويزنى بابنتيه ؟ أو أن نبياً آخر ـ بعدما شاخ ـ يعمل على مرضاة زوجته الصبية الحسناء فينكفىء على عبادة الصنم الذى كانت تعبده مؤثراً رضاها على رضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؟ (6) .

هذا بعض ما تذكره التوراة المحرفة عن أئمة الهدى ورسل الإصلاح ، وهم الذين أرسلهم الله ليقيم بهم حجته على خلقه وليقطع كل حجة للناس ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾ (7) .

---

(1) البقرة : 79 .
(2) الإسراء : 105 .
(3) آل عمران : 62 .
(4) انظر سفر التكوين الفصل 19 .
(5) انظر القصة في سورة هود وسورة الحجر وغيرها .
(6) انظر سفر الملوك الثانى الفصل 11 وسفر الملوك الثالث الفصل 11 .
(7) النساء : 165 .

أغراض القصة فى القرآن

« القصة فى القرآن ليست عملاً فنياً مستقلا فى موضوعه وطريقه عرضه وإدارة حوادثه كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة الطليقة ، إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية ، ولما كان القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شىء فإن القصة هى إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها ، ولذا فقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وطريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية »[1] .

ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الدينى ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء لم يمنع من بروز الخصائص الفنية فى عرضها وأسلوبها وإدارة حوادثها بطريقة معجزة حقاً .

وإنه ليستحيل على بشر مهما أوتى من عبقرية فنية أن يقدم أدباً رفيعاً وفناً معجزاً تصحبه دعوة مباشرة فى نفس الوقت ومع التزام كامل بالصدق والواقعية مما يجعلنا نقول بحق : « إنه فى قصص القرآن يذوب الغرض الدينى فى الغرض الفنى أو يذوب الغرض الفنى فى الغرض الدينى ، فإذا الجمال غاية مستهدفة ووسيلة مستخدمة فى نفس الوقت ، وإذا بآلاف العناصر تصنع فى نهاية الأمر مزيجاً لا يقدر عليه غير خالق الإنسان والملائكة »[2] .

وإذن فأغراض القصة فى القرآن تكاد أن تكون هى بذاتها جميع أغراض القرآن « كإثبات الوحى والرسالة ، وإثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان فى أساسها ، والإنذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية وإثبات البعث والنشور ، وعاقبة الخير والشر والعجلة والتريث والجزع والصبر والبطر والشكر ، وغير ذلك من الأغراض الدينية والمرامى الخلقية »[3] .

---

(1) التصوير الفنى في القرآن ، سيد قطب ص 117 .
(2) أنبياء الله ، أحمد بهجت صـ 24 بتصرف .
(3) التصوير الفنى في القرآن صـ 118 .

وسنعرض ـ فيما يأتى ـ لبعض هذه الأغراض بشىء من التفصيل .

أولاً : إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوى الرسالة باعتبار أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم طول حياته فكيف علم بهذه الأخبار الدقيقة عن قصص الأولين ؟ .

إذن فورود هذه القصص فى القرآن الكريم يعتبر دليلاً على أن محمداً رسول الله حقاً وأنه يبلغ ذلك عن الله ـ عز وجل ـ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بوضوح فى مقدمة بعض من هذه القصص وفى التعقيب على بعض آخر ، وفى ثنايا العرض أحياناً .

من ذلك قول الله ـ تعالى ـ فى أول قصة يوسف ـ عليه السلام ـ من سورة يوسف ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[1] ، أى ما كنت تعلم شيئاً عن هذا القصص قبل أن نوحى إليك به .

ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ فى نهاية القصة نفسها ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾[2] .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى افتتاح قصة موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[3] .

وعند انتهاء القصة يقول الله ـ سبحانه ـ : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾[4] . يعنى : وما كنت هناك بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى على الشرق من شاطىء الوادى الأيمن ، فأنت لم تشهد ذلك ولكنا أوحينا به

(1) يوسف : 3 .
(2) يوسف : 102 .
(3) القصص : 1 ـ 3 .
(4) القصص : 44 ـ 46 .

إليك دليلاً على أنك رسولنا ، وفى هذا رحمة من ربك بعباده حيث أرسلك إليهم وأيدك بالدلائل لعلهم يهتدون بماجئتهم به من الله ـ عز وجل ـ [1] .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في التعقيب على قصة نوح ـ عليه السلام ـ فى قول الله تعالى : ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [2] .

وفوق هذا فإن القرآن الكريم فى عرضه لقصص الأولين يذكر ـ أحياناً ـ بعض الوقائع التى لم يكن يعلمها أحد من أهل الكتاب أو غيرهم ولا وجود لها فى العهد القديم أو الجديد ، اللهم إلا أن تكون من الأسرار التى لا يبيحون بها لأحد أو أسقطها النساخون لهذه الكتب بقصد أو بدون قصد ، من ذلك ما يشير إليه قول الله ـ تعالى ـ فى قصة مريم : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ [3] .

والواقعة المشار إليها هنا أنه جرى تنافس بين سدنة الهيكل على كفالة مريم حين جاءت بها أمها إليهم ، وأنهم ألقوا أقلامهم ـ فيما يشبه القرعة ـ فخرجت من نصيب زكريا ـ عليه السلام ـ فكانت فى كفالته ، وذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [4] .

ثانياً : بيان أن الدين واحد فى أساسه وأنه من عند إله واحد وأن طريق الداعين إليه واحد ، وهذا واضح من طريقة العرض التى سلكها القرآن الكريم وهو يعرض علينا العديد من قصص الأنبياء متشابهة الحلقات ، تتكرر فيها العقيدة الأساسية ربما بذات الألفاظ على لسان كل الرسل .

جاء فى سورة الأعراف عن نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [5] .

(1) تفسير الآيات من ابن كثير بتصرف .
(2) هود : 49 .
(3) آل عمران : 44 .
(4) آل عمران : 37 .
(5) الأعراف : 59 .

وجاء بعد ذلك فى نفس السورة عن هود ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (1) .

وبعد ذلك يجيىء الحديث عن صالح ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾ (2) .

ثم يكون الحديث عن شعيب ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾ (3) .

فهو اتفاق تام فى الأساس واتفاق فى الوسيلة والغاية تبرزه القصص بهذه الطريقة الفريدة .

وإنه لما يثير العجب أن استقبال الناس فى كل العصور لتلك الدعوة الواحدة كان متشابهاً فى موقف الرفض والتكذيب والعناد حتى وجدنا القرآن الكريم يسلك الأمم كلها فى سلك واحد من حيث مواجهتها لرسل الله بالسخرية والاستهزاء وتلفيق التهم فيقول : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (4) .

وفى معرض التعقيب على عدد من القصص يبرز هذا الأمر العجيب فيقول : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (5) . وفى هذا التعبير من السخرية بهم ما فيه .

ثالثاً : بيان كيفية تأييد الله لأوليائه ونصرته لهم ، وبيان كيفية إهلاك أعدائه وإنزال العقوبة بهم .

وذلك تثبيتاً لرسول الله ومن آمن معه وتهديداً وتخويفاً لأهل مكة ومن على شاكلتهم ، وقد صرح القرآن الكريم بهذا الغرض فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُلاًّ

---

(1) الأعراف : 65 .
(2) الأعراف : 73 .
(3) الأعراف : 85 .
(4) الحجر : 10ـ13 .
(5) الذاريات : 52 ـ 53 .

نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (2) .

ولتحقيق هذا الغرض فإن قصص الأنبياء تأتى ـ غالباً ـ مختومة بذكر مصارع المكذبين ، مثال ذلك ما جاء فى سورة العنكبوت بعد ما تمَّ ذكر جانب من قصص أنبياء الله نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى جاء الختام بقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (3) .

وتلك هى النهاية الحتمية للمكذبين ، والتى ينبغى أن تكون موضع عبرة تستحق أن يلفت إليها القرآن الكريم أنظار المؤمنين خصوصاً فى أوقات المحن التى تمر بهم وفى هذا المعنى يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (4) .

رابعاً : بيان قدرة الله ـ تعالى ـ على إحداث الخوارق والمعجزات وأنه سبحانه خلق الخلق من عدم ، توصلاً من ذلك إلى إثبات قدرته ـ سبحانه ـ على بعث الناس بعد موتهم ، تلك العقيدة التى تعد إحدى ركائز الإيمان الأساسية .

« ترينا قصص الأنبياء فى القرآن قدرة الله على فعل المعجزات والخوارق ، ونفضل ـ تأدباً ـ أن نسميها قدرة الله فحسب ، ذلك أن القانون الذى يبدو لنا نحن البشر كقانون ، مثل أن البحر لا ينشق نصفين أو أن العصا لا تتحول إلى ثعبان يأكل عصياً أخرى ، هذا القانون بالنسبة لنا ، هو عبد مخلوق بالنسبة لله ـ عز وجل ـ ،

---

(1) هود : 120 .
(2) الأنعام : 34 .
(3) العنكبوت : 40 .
(4) آل عمران : 137 ـ 138 .

ليس القانون قانوناً على الله ـ سبحانه ـ، فهو قانون علينا نحن ، ونحن مخلوقات مثله ، أما الله فخالق ، وطاعة القانون له أمر لا ندريه نحن ولا نعرفه ، ولهذا نسميه معجزة أو خارقة بينما الأمر غير ذلك .

كان الكون عدماً فصار بكلمة الله كوناً ، وكانت الأرض عدماً فصارت بكلمة الله أرضاً ، ومن طين الأرض خلق آدم ، وجعل الله من القوانين السارية على هذا المخلوق أن يجيىء نسله من اتصاله بحواء ، من اتصال رجل وامرأة .

ثم شاء الله أن يولد طفل من امرأة فقط من غير أن يلمسها رجل ، كلمة شاء الله أن تكون فكانت عيسى بن مريم .

هل هى معجزة أو خارقة أو قانون أصيل يطيع خالقه ولا ندرى نحن كيف ؟

إن الأصل أن يخلق الله الإنسان من غير أب أو أم أو مثال سابق ، والاستثناء أو المعجزة أن يجيىء الإنسان من اتصال رجل بامرأة ، هذه هى الخارقة .

أئذا عاد القانون من استثنائه إلى طبيعته الأصلية سمينا ذلك خارقة أو استثناء أو معجزة ، أليس هذا غريبا ؟ » [1] .

هذا ما يظهر بوضوح فى قصة آدم ـ عليه السلام ـ، وفى قصة عيسى ـ عليه السلام ـ، وفى ثنايا كثير من قصص القرآن الكريم .

وها هى الآيات المباركات تعرض علينا جانباً من قصة زكريا ـ عليه السلام ـ حين دعا ربه القادر أن يهب له من لدنه ولياً يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضياً فجاءته البشرى : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [2] .

نعم هكذا كل شىء هين على الله ـ سبحانه ـ فالقادر على أن يخلق من العدم خلقاً قادر بالأولى ـ فى حكم العقل ـ أن يخلق غلاماً من امرأة عاقر بلغ زوجها من الكبر عتياً ، وقادر كذلك على خلق غلام من امرأة لا زوج لها وبدون أن يمسها بشر

---

(1) أنبياء الله . أحمد بهجت : صـ 27 .

(2) مريم : 7 ـ 9 .

ولما قيل هذا لتلك المرأة الطاهرة البتول ـ مريم ـ قالت ما ذكره الله فى قوله : ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (1) .

بعد ذلك ساق القرآن الكريم قصة حملها بعيسى وكيف ولدته وكيف أتت به قومها تحمله ، وكيف كلم عيسى قومه وهو فى المهد ـ بأمر الله ـ وماذا قال لهم، وفى كل جزئية من جزئيات هذه القصة بهذا العرض الرائع والصادق أمارة باهرة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

هنا يأتى ختام القصة مجسداً لهذا المعنى بأقوى منطق وأجلى بيان ، فيقول الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (2) .

وفى القرآن ـ مع ذلك ـ قصص قصيرة أو مشاهد من قصص تساق لإثبات هذه الحقيقة ، وعلى الرغم من قصرها فإنها تؤدى الغرض الذى سبقت له على أكمل وجه .

« من ذلك قصة رجل تقول بعض الروايات إنه « عزير » ـ كان يركب حماراً له يحمل عليه زاده وشرابه فمر فى طريقه بقرية خربة قد تهدمت بيوتها وخوت من أهلها وصارت بيوتها قبوراً لمن كانوا يعيشون فيها ، فنظر إليها متسائلاً : كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟ كيف تدب الحياة من جديد فى هذا الموات ؟

إن الرجل يعرف الله ولكن المنظر الموحش ومشهد البلى والخواء كان له وقع عنيف على حسه جعله يحار فيسأل هذا السؤال .

ولم تأته الإجابة فى كلمة أو كلمات ، ولم يسمع بأذنيه إجابة على تساؤله ، إنما كانت الإجابة فى صورة تجربة شخصية ذاتية مباشرة من شأنها أن يمتلىء بها الحس ويطمئن بها القلب .

حدث عقب صدور هذا القول منه أن الله أماته وبقى فى الموت مائة عام ،

(1) مريم : 20 ـ 21 . (2) مريم : 34 ـ 35 .

عمرت أثناءها القرية ـ كما تقول بعض الروايات ـ ثم بعثه الله حياً ـ لا يدرى ما جرى ولا كم من الزمن مر عليه ـ وسأله : كم لبثت ؟

إنه لا يدرى ، فالإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعى ، ولهذا كانت إجابته : لبثت يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه ـ كما يروى ـ دخل التجربة العجيبة عند الظهيرة وعاد إلى الحياة بعد العصر ، لكن بعد مرور مائة عام .

فأخبره الله أنه بقى فى الموت مائة عام ، وأراه الله مظاهر قدرته وكيف يحيى الموتى ، فقد أماته الله مائة عام ثم أحياه .

ولكن أين حماره ؟ وأين زاده وشرابه ؟ فلينظر إذن وليتلفت حوله بأمر الله ليرى ، فقد أصبح بإمكانه أن يرى بعد أن عاد إلى الحياة وعادت إليه الحياة .

ما هذا الذى يرى ؟ ها هو طعامه وشرابه كما هو لم يفسد ولم يتغير على الرغم من مرور مائة عام عليه ـ وهذا مخالف لمألوف الناس ولما درج على تسميته بالقانون ـ أما الحمار فقد صار عظاماً متفرقة هنا وهناك تلوح من بياضها .

ياسبحان الله : مات الحمار وتفرقت أجزاؤه على حين بقى الطعام صالحاً لم يفسد ولم يتغير ، مع أن المعروف فى العادة أن الطعام والشراب أسرع إلى الفساد والتغيير من كل ما عداه ، لكنها قدرة الله .

فليتأمل ولينظر إذن إلى عظام حماره ها هى تجتمع ويركب بعضها على بعض ، وها هو الحمار يستوى ويكتمل لكنه لا يزال عظاماً . يا سبحان الله ما هذا ؟ إن اللحم بدأ يكسو العظام واكتمل الحمار عظماً وعصباً وعروقاً ولحماً وجلداً وشعراً، وإذا بالروح تنفخ فيه فيعود واقفاً على أرجله رافعاً ذيله وينهق ، كل هذا والرجل يرى ، فماذا عليه أن يقول وأن يشاركه القول كل من تدبر ؟

إنه يقول : أعلم أن الله على كل شىء قدير ، أنا الآن أعلم أهل زمانى بذلك » [1] .

---

(1) انظر تفسير الآية : 259 من سورة البقرة فى تفسير ابن كثير وفى ظلال القرآن ، وفى أنبياء الله لأحمد بهجت صـ 295 .

فلنقرأ إذن هذه القصة في روعتها ودقتها وقوة تأثيرها بأسلوب القرآن المعجز، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ (1) عَلَىٰ عُرُوشِهَا (2) قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (3) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (4) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (5) .

(1) خاوية : ليس فيها أحد ، من قولهم خوت الدار خوياً .
(2) ساقطة السقوف والجدران .
(3) لم يتغير ولم يفسد .
(4) ننشزها : نرفعها فيركب بعضها علي بعض .
(5) البقرة : 259 .

تكرير القصة فى القرآن

يلاحظ القارىء للقرآن الكريم أن بعض القصص ـ أحياناً ـ تكرر عدة مرات ، فما سر ذلك ؟

السر أن القرآن ـ كما قلنا ـ كتاب هداية وإرشاد ، وأن القصة وسيلة من وسائله لتحقيق غرض من الأغراض الدينية المتنوعة ، وهذا يعنى أن التكرير أثر من آثار خضوع القصة للغرض الدينى .

على أن هذا التكرير ليس عيباً ، بل هو ميزة أخرى تضاف إلى مزايا القصص القرآنى ، فإنه من المستحيل على أى كاتب ـ مهما بلغت درجة كفاءته ونبوغه ـ أن يحكى لك قصة واحدة عدة مرات دون أن يهبط مستواه ويفقد تأثيره ، فضلاً عن عجزه عن الإتيان بجديد يضاف لذات القصة « مع أن القصة فى القرآن تظل فى الذروة برغم تكرارها ، وفى كل مرة تعرض فيها يتغير تأثيرها أو إيحاؤها بكلمة تضاف ، أو جزء يحذف ، أو عبارة جديدة ، أو مجرد ظل لخاطر نفس لم يعرض قبل ذلك » (1) .

« على أن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالباً إنما هو تكرار لبعض حلقاتها وهو فى معظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً » (2) .

فهو إذن ليس تكراراً بالمعنى المطلق لأنه دائماً يكون هناك شىء جديد يراد إبرازه تمشياً مع السياق ووفاء بالغرض فيُعرض جانب من القصة بالشكل الذى يتناسب مع الهدف المقصود توضيحه ، ومع هذا يظل أسلوب عرض القصة محافظاً على سموه المعجز وروعته الفريدة ، ودائماً يتحقق التناسب بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه دون أن يخل هذا بالسمات الفنية ، ومن المحال أن يتأتى هذا فى غير القرآن الكريم .

(1) أنبياء الله صـ 21 بتصرف .
(2) التصوير الفنى فى القرآن صـ 126 .

خصائص القصة فى القرآن

« إن خضوع القصة فى القرآن للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها وإنما زاد عليها خصائص أخرى تحسب فى الرصيد الفنى للقصة مما يؤكد أن القرآن يجعل الجمال الفنى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى ، وأنه يخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية »[1] .

ويمكن إجمال بعض تلك الخصائص فيما يأتى :

أولاً : البعد عن الحشو والزيادة بدون غرض ، وإهمال مالا فائدة من ذكره كأسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ ما لم يكن فى ذكرها فائدة ، فهو يعطى العناية لمواطن العبرة ويركز على استخراج العظة والدرس .

إقرأ قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** . . ﴾[2] .

تجد أن الآية لا تذكر لنا اسم الرجل ولا اسم القرية ، ولو كان فى ذكرهما فائدة لذكرهما القرآن الكريم .

ومثل ذلك قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾[3] .

ومثل ذلك ما جاء فى القرآن الكريم حكاية لما قاله مؤمن من آل فرعون ـ كان يكتم إيمانه ـ دفاعاً عن موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُم** . . . ﴾[4] .

وشبيه بهذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[5] .

---

(1) المصدر السابق صـ 139 بتصرف .
(2) البقرة : 259 .
(3) القصص : 20 .
(4) غافر : 28 .
(5) يوسف : 30 .

فقد ذكر الرجل بوصفه ـ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ـ فهذا هو المهم ولم يذكر اسمه حيث لا فائدة من ذكره .

ولم يذكر أسماء النسوة ولا اسم المرأة ، لكنه ذكر صفتها لوجود غرض يتعلق بذكر الصفة وهو كونها امرأة العزيز التى تهيم حباً بعبد من عبيدها فيتأبى عليها ويمتنع .

ومن هذا النوع قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قَالَ الَّذى عندَهُ علْمٌ مّنَ الْكتَاب أَنَا آتيكَ به قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** . . ﴾ [1] .

فقد ذكر وصف هذا الشخص ولم يذكر اسمه لإبراز قيمة العلم ، وأن الإنسان يقدر بالعلم على ما لا يقدر عليه الجن ، فإن عفريتاً من الجن يتعهد بإحضار عرس بلقيس إلى سليمان ـ عليه السلام ـ قبل أن يقوم من مقامه ، ولكن هذا ﴿ **الَّذي عندَهُ علْمٌ مّنَ الْكتَاب** ﴾ ـ ومن غير المهم أن نعرف اسمه ـ يقدر على إحضاره فى لمح البصر ، وقد كان .

ثانياً : العمل على سمو الذوق الإنسانى والترفع الخلقى باختيار أدق العبارات وأروعها ، ويظهر ذلك جلياً عندما تأتى القصة على ذكر بعض الوقائع التى تتحدث فى خصوصيات علاقة الرجال بالنساء .

فهذا موقف تحاول فيه امرأة عاشقة إغراء رجل معشوق قد شغفت به حباً ، فانظر كيف تعبر القصة القرآنية عن هذا الموقف دون الوقوع فى الإسفاف أو الإثارة ـ لأن ذلك مرفوض خلقياً ـ ومع التزام كامل بالصدق والواقعية .

إن التعبير يجيىء على الشكل الآتى : يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بَيْتهَا عَن نَّفْسه وَغَلَّقَت الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّه إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلحُ الظَّالمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ به وَهَمَّ بهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبّه كَذَلكَ لنَصْرفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ منْ عبَادنَا الْمُخْلَصين** ﴾ [2] .

---

(1) النمل : 40 .

(2) يوسف : 23 ـ 24 وما بعدهما .

« إن امرأة العزيز هامت حباً بغلامها يوسف لما رأت من حسنه وبهائه وقوته وسنائه فهو منها قريب ترقبه فى غدوه ورواحه وتلحظه فى قيامه وقعوده وحركته وسكونه وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه .

ونما مع الأيام حبها وهو عن ذلك غافل ولا يشغله عن أداء واجبه شاغل ، حتى ضاق صدرها بما تجد ، فرأت أن تجيب داعى الهوى وأن تصرف إرادته إلى مرادها ، وتلفته إلى مطلوبها ، فنصبت له حبائل الفتنة وأطلعته من نفسها على ما عساه أن يصبى نفسه ويثير داعية هواه ، ولكنه أعرض عن تلويحها وتلميحها ، وغض بصره عن محاسنها ورونق جمالها ، وما كان ليوسف ـ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ـ أن يميل قلبه إلى محرم أو تجنح به نفسه إلى معصية .

لكن الإعراض ضاعف هواها ، والمنع أثار كامن غرامها ، فرأت أن تحصل بالتصريح على ما لم تنله بالتلويح ، وأن تكون أجرأ على ما تطلب ، وأشجع فيما تريد وترغب ، فما عادت تطيق صبراً ، فأجمعت أمرها وهيأت نفسها بعد أن ألقت صولجان الملك ولبست شعار المتصبية العاشقة ، ودعته لمخدعها فلبى سريعاً استجابة لأمرها وجرياً على عادته فى طاعتها وقياماً بواجبه فى خدمتها ، وإذا بها تسدل الستائر ، وتغلق الأبواب وتقول : هيت لك [1] ، ولكن يوسف ـ وإن كان فى ريعان الشباب وغضاضة الإهاب ، وفراغ البال ، وحسن الحال ـ قد ارتضع لبان الحكمة ، وترعرع فى كنف الرسالة ، وأعده الله لشرف النبوة ، فقلبه مشغول بربه ليس فيه موضع تستميله امرأة أو تستهويه نزوات الهوى .

أجابها يوسف : معاذ الله أن أجيبك إلى ما تريدين أو أذعن إلى ما تطلبين وحاشاى أن أخون مولاى العزيز وهو الذى أحسن مثواى وأكرم مأواى ، إذن لكنت منكر النعمة جاحد الجميل ، ولئن كنت قد غلَّقت الأبواب وأسدلت الحجب فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وحاشاى أن تطاوعنى نفسى لمعصيته أو أن يستجيب قلبى لما يغضبه ، إنه لا يفلح الظالمون .

(1) أى : تهيأت لك .

امرأة العزيز فى سطوتها وعزتها وجمالها ودلالها تدعو فتى من فتيانها بل خادماً من خدامها فيأبى ويمتنع ويستكبر ويستعصم وهى الآمرة الناهية فى قصرها والسيدة المطاعة فى خدمها وحشمها !!

إنها لعظيمة لا يحتملها كبرياؤها وكبيرة لا تسيغها نفسها .

إستطار غضبها وهاج هائجها فهمَّت به بطشاً وأرادت به سوءاً انتقاماً لعزتها المضاعة وهمَّ هو أن يلقى الشر بالشر ويصد الضرب بالضرب ، ولكنه أحس بإشراق النبوة فى نفسه ورأى برهان الله فى قلبه فأدرك أن الفرار خير من الضراب والمسالمة خير من المواثبة فهمَّ إلى الباب جرياً وهمَّت وراءه عدْواً حتى أمسكته من ثوبه وجذبته من قميصه فتمزق ، وذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ . ﴾[1]

وما أن انتهيا إلى الباب حتى رأيا العزيز واقفاً بالباب . . وهنا لجأت المرأة إلى دهائها ومكرها فاتهمته بالباطل ودافع عن نفسه بالصراحة والحق .

وكان قَدُّ القميص من خلف شاهداً على صدقه ودليلاً على براءته ، وجاء من أهلها من شهد بذلك وظهر أن هذا من كيد النساء وأن كيدهن عظيم »[2] .

وفى معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا . . ﴾ روى ابن جرير وغيره عن طائفة من الصحابة والتابعين أن المراد به : خطرات حديث النفس ، وقد حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق وروى هنا حديثاً متفقاً عليه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **يقول الله تعالى : إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائى ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها وقيل :همَّت به لتنتقم منه وهمَّ ليدفع عن نفسه**[3] **وقيل تمناها زوجة**[4] .

---

(1) يوسف : 25 .
(2) قصص القرآن لمحمد أحمد جاد المولي وآخرين صـ 95 وما بعدها .
(3) وإليه ذهب كثير من المفسرين علي نحو ما نقلناه عن قصص القرآن .
(4) تفسير الآية في ابن كثير .

وأياً ما كان فلا ينبغى تفسيرها إلا بما يليق بمنزلة أنبياء الله الأكرمين ، وبخاصة أن السورة تحوى عدداً من شهادات البراءة ليوسف ـ عليه السلام ـ منها ختام هذه الآية فقد قال الله تعالى : ﴿ . . . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

فالله ـ سبحانه ـ قد صرف عنه السوء والفحشاء ، وأيضاً فقد شهد الله له بأنه من عبادة المخلصين ، وليس بعد شهادة الله شهادة .

وأسلوب القصة القرآنية هنا وفى مثل هذه المواطن هو نفس أسلوب القرآن الكريم فى التعبير عن هذه العلاقات فى أى مناسبة ، ومن ذلك حديث القرآن الكريم عن العلاقة الزوجية حيث يقول فى معرض حض الزوج على عدم ظلم زوجه عندما يريد طلاقها فلا ينبغى أن يأخذ منها شيئاً من الصداق مهما كان قدره وليذكر ما كان بينهما من علاقة ، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[1] .

ثالثا : الاهتمام بوضوح الأهداف والتركيز عليها وصولاً إلى الأغراض التى يريدها من ذكر القصة ، والقرآن فى هذه الناحية ـ كما فى غيرها ـ يصل إلى ذروة دونها كل ذروة .

إذ أنه قد يثير انتباه القارىء إلى ما يريد من غرض بمقدمة يذكرها للقصة ، أو بتعقيب يأتى فى آخرها ، أو بعبارة ترد فى ثنايا القصة على لسان إحدى الشخصيات أو بإضافة جملة فى أثناء العرض « وقد لا يُعرض من القصة إلا جانب من جوانبها بالقدر الذى يكفى لأداء الغرض الدينى المقصود ، وإبراز هدف من الأهداف التى يعمل لها الإسلام ، وقد يكون هذا الجانب ـ على صعيد الواقع ـ مكانه أول القصة وقد يكون وسطها وقد يكون آخرها .

وتارة تعرض القصة كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وطوراً تتوسط بين هذه وذاك حسبما تكون العبرة فى هذا الجزء أو ذاك .

(1) النساء : 20 ـ 21 .

ذلك لأن الهدف التاريخى لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصى سواء »[1] .

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن القصة قد تعرض لغرض معين تقوم بتحقيقه دائماً على الوجه الأكمل ، ومع ذلك تحتوى على العديد من الأغراض والتوجيهات والإشارات فى الكثير من سطورها وعباراتها ، وهذا ما لا نظير له فى غير القرآن الكريم .

وهذه بعض الأمثلة :

(1) يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[2] .

إن الغرض هنا يذكر أولاً فى آيتين ثم تأتى القصص بعد ذلك من أول الآية التالية لهما ، لتدل على رحمة الله الغفور الرحيم لمن أناب إليه ومشى على صراطه المستقيم ولتؤكد أن عذابه الأليم ينزله بالمكذبين الضالين .

(2) يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3] .

يأتى هذا تعقيباً على عدد من القصص التى سبقت قبلاً إبرازاً للهدف وتركيزاً عليه .

(3) فى ثنايا قصة يوسف ـ عليه السلام ـ تعرض القصة حادثة وقعت بعد خروج يوسف من السجن بريئاً من كل ما ألصق به ، فيقول الله : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[4] .

---

(1) التصوير الفنى للقرآن صـ 132 بتصرف .
(2) الحجر : 50 ـ 52 .
(3) العنكبوت : 40 .
(4) يوسف : 54 ـ55 .

وبعد عرض الواقعة على هذا النحو يتم الانتقال إلى شيء آخر ليس من وقائع القصة ولكنه إبراز لغرض ديني آن الأوان لإبرازه : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (1) .

ويستمر عرض القصة بعد لفت الأنظار إلى هذه الدروس الهامة ، على أن المتأمل البصير لابد وأن ينتبه إلى مغزى هذه العبارة التي يذكرها القرآن الكريم على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ في معرض ذكر أسباب ترشيحه نفسه ليكون وزيراً للمالية والتموين ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وكذلك تلك العبارة التي وردت على لسان الملك وهو يخاطب يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

فإن فيهما دلالة واضحة على أهم المواصفات التي يجب أن تتوفر فيمن ينبغي تكليفه بمثل هذا العمل حتى يحسن القيام به . وكما حدث من يوسف ـ عليه السلام ـ كما يتضح من القصة .

(4) في هذا المثال سنصحب موسى ـ عليه السلام ـ لحظة خروجه من مصر مهاجراً عندما أخبر أن مؤامرة تحاك لقتله ، ونمضي معه حتى يستقر في بيت رجل صالح في أرض مدين (2) .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا

(1) يوسف : 56 ـ 57.

(2) المشهور عند كثير من العلماء أنه شعيب ـ عليه السلام ـ، وقيل هو ابن أخي شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، ومن المرجح أنه ليس شعيباً لأن شعيباً كان قريباً من زمن إبراهيم وقبل زمان موسى بمدة طويلة ، ولو كان شعيباً لأوشك القرآن أن يذكر اسمه ، وما ورد من الأحاديث مما يدل على أنه شعيب لم يصح إسناده ، انظر تفسير الآيات في ابن كثير .

نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

إننا حين نقرأ هذا الجزء من القصة الذى يبدأ عند خروجه من مصر خائفاً وينتهى باستقراره آمناً فى بيت الرجل الصالح نرى العديد من الأهداف تبرزها العبارات والجمل التى ترد فى ثنايا القصة مع ملاحظة ذلك التناسق العجيب بين البدء والختام .

إنه عند خروجه خائفاً يترقب يدعو ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وعند استقراره فى بيت الرجل الصالح وبعدما عرض عليه قصته يقول له الرجل : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إن أول المشهد دعاء يتوجه به موسى ـ عليه السلام ـ إلى الله ـ عز وجل ـ ، وآخر المشهد استجابة الله لهذا الدعاء ، وأول المشهد خوف وآخره أمن من هذا الخوف .

وفى هذا إبراز لهدف من الأهداف الإسلامية الهامة هو أن العبد المؤمن إذا دعا الله أجابه فعليه أن يلجأ إلى سيده ومولاه الذى يجيب المضطر إذا دعاه .

ونجد هنا شاهداً آخر يبرز هذا الهدف نفسه تأكيداً له ، إن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن يسقى للمرأتين ماشيتهما يأوى إلى الظل ليستريح من عناء السفر ويلجأ إلى ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ومن الله تأتيه الإجابة الفورية التى تعبر عنها القصة بهذه الطريقة . يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . . . ﴾[2] .

وأيضاً فإن موسى ـ عليه السلام ـ حين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون

(1) القصص : 21 ـ25 .
(2) القصص : 25 .

ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، سألهما : ما شأنكما ؟ فكانت الإجابة التى تلقاها : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى : ليس لنا أن نزاحم ، ولابد أن ننتظر انفضاض الرعاء عن الماء ثم نسقى .

لكننا نلاحظ أن الإجابة لا تقف عند هذا الحد ، إنما تستكمل الإجابة بهذه العبارة : ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فما سرها ؟ .

إن المرأتين استشعرتا سؤالاً يجول بالخاطر : أليس لكما من يغنيكما عن القيام بهذا العمل الذى لا يناسب النساء ؟ فأجابتا عن هذا السؤال الوارد بهذه الإجابة .

ومن ذلك نفهم أن الله ـ سبحانه ـ هيأ المرأة للقيام بأعمال تناسب طبيعتها ، وهى بالقطع لابد أن تختلف عن تلك الأعمال التى تناسب طبيعة الرجال .

والضرورة وحدها ـ إذن ـ هى التى اضطرتهما للقيام بهذا العمل ، والضرورة تقدر بقدرها ، ولذا فما إن وجد أبوهما ـ الشيخ الكبير ـ رجلاً يقوم بهذا العمل حتى استأجره ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ كما يظهر من سياق القصة فيما بعد .

ولما كان الحياء من أعظم الأخلاق التى ينبغى أن يتحلى بها كل مؤمن ، وهو أكمل الزينة للمرأة المؤمنة على وجه الخصوص فإن القرآن الكريم يبرز هذا الهدف بقوة بعبارة واحدة ترد فى ثنايا القصة ، فيقول الله : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . .﴾ [1] .

فلو جاءت الآية هكذا ، مثلاً : فجاءته إحداهما قائلة : إنى أبى . . إلخ ، لما ضر ذلك شيئاً فى سياق القصة من حيث الوقائع والأحداث ، لكنه ـ كما قلنا ـ ليس ذكر الوقائع والأحداث هدفاً فى ذاته وإنما المقصود التركيز على مواطن العبرة وخدمة الأهداف الإسلامية .

وبهذا تكون عبارة ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قد جاءت فى مكانها تماماً ، ووافية بتحقيق الهدف المراد إبرازه من أيسر طريق وبأقوى بيان ، ودون إخلال بسياق القصة .

---

(1) القصص : 25 .

وهكذا فإن قراءة القصة فى القرآن ينبغى أن يكون بتدبر ، فربما كان مع كل سطر أو عبارة هدفاً نبيلاً يدعو إليه القرآن أو خلقاً كريماً يحث عليه وذلك فضلاً عن الهدف أو الأهداف العامة للقصة ذاتها .

رابعاً : قد عرفنا أن القصة القرآنية تساق ـ أصلاً ـ لتحقيق غرض دينى معين وقد تخدم معه عدة أغراض دينية أخرى فى ثناياها ، ونضيف هنا أنها تعمل على تحقيق ذلك عن طريق الجمال الفنى لأن ذلك من شأنه أن يجعل تأثيرها فى الوجدان أكبر وولوجها إلى أعماق النفس أيسر ، وقد كان من نتيجة ذلك أن تميزت القصة بعدد من الخصائص الفنية الأخرى ذات القيمة الكبرى ، منها :

(1) **تنوع طريقة العرض** : فمرة تبدأ القصة بذكر ملخص لها يعقبه التفصيل ، كما فى قصة أهل الكهف من سورة الكهف ، ومرة يسبقها حديث عن عاقبتها ومغزاها ثم تبدأ القصة فى ذكر الوقائع والتفاصيل من البداية حتى تصل إلى النهاية فنرى الكيفية التى تحقق بها ما ذكر أولاً من المغزى والعاقبة ، وكأن المقدمة كانت تمهيداً مشوقاً لمتابعة أحداث القصة وصولاً إلى الغاية التى عرفت سلفاً .

ونقرأ فى هذا قصة موسى ـ عليه السلام ـ من أول سورة القصص فإنها تبدأ هكذا : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[1] .

ثم تبدأ القصة بذكر ميلاد موسى ـ عليه السلام ـ وتمضى وقائع القصة حتى تصل إلى نهايتها فنجد أن هذا الذى ذكر فى البداية قد تحقق فى النهاية ، إقرأ قوله تعالى ـ : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[2] .

(1) القصص : 3 ـ 6 .
(2) القصص : 40 .

وتارة أخرى تبدأ القصة بذكر رؤيا منامية ثم تتوالى وقائع القصة لتختم فى النهاية بتحقق تلك الرؤيا التى ذكرت فى البداية كما فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ من سورة يوسف ، وغير ذلك من طرق العرض المتنوعة .

(2) **تقسيم القصة إلى حلقات أو مشاهد مع ترك فجوات بين كل حلقة وحلقة أو مشهد ومشهد فيقوم الخيال بتصور ما جرى بين الحلقتين أو المشهدين** : وهذه الطريقة متبعة فى كل قصص القرآن .

ونرى مثالاً لهذا فى قصة جماعة من بنى إسرائيل من بعد موسى ـ عليه السلام ـ وقد طلبوا من نبيهم أن يؤمّر عليهم قائداً يجاهدون فى سبيل الله تحت لوائه .

فأخبرهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً ، فنازعوا فى ذلك وزعموا أن فيهم من هو أحق بالقيادة منه لأنه فقير ، فبيّن لهم نبيهم أن طالوت مختار من الله الذى حباه بمزايا وصفات تؤهله للقيام بهذا العمل ، ودلل على ذلك بعلامة وأمارة وكان ختام هذا الحوار بينهم وبين نبيهم ما ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله : ﴿ **إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين** ﴾[1] .

وهنا ينتهى مشهد ليبدأ بعده مشهد جديد نقرأ فيه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ . .** ﴾[2] .

سنجد القائد طالوت فى هذا المشهد يخرج للجهاد مع جنوده ، وبين المشهدين فجوة كما ترى ، فقد انتهى المشهد الأول عند نهاية الحوار الذى دار بين النبى وبين قومه ولم نر طالوت فى ذلك المشهد ، على حين بدأ المشهد الثانى على منظر جيش منظم يقوده طالوت متوجهاً إلى المعركة حيث يلقى عدوه ، وبين المشهدين مسافة كبيرة تركتها القصة ليملأها الخيال مستمتعاً بهذا العمل .

ونرى مثالاً آخر فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ حيث نسمع القصة القرآنية

(1) البقرة : والقصة من الآية 236 إلي الآية 256 .
(2) البقرة : 249 .

تذكر لنا ما قاله يوسف ـ عليه السلام ـ وهو فى السجن ـ للرجل الذى رأى فى منامه أنه يعصر خمراً وقد عبر له الرؤيا بأنه سيخرج من السجن وسيعود إلى عمله فى خدمة الملك . فلنستمع إلى يوسف ـ عليه السلام ـ وهو يخاطب الرجل عند خروجه من السجن ـ كما تذكره الآية الكريمة : ﴿ **وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾[1] .

هنا ينتهى مشهد ويبدأ بعده مشهد آخر وقد تركت بين المشهدين فجوة ، فقد بقى يوسف فى السجن ونسى الرجل الذى كان معه أن يذكر قصته للملك ولا ندرى ماذا سيكون مصير يوسف ، وفى المشهد التالى يتغير المكان والحضور ، فهنا يجلس الملك والحاشية بعد أن كان المشهد السابق مع يوسف فى السجن ، وإذا بالملك يقص على الملأ من حوله رؤياه التى رأها ويطلب من الحضور تأويلها .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** ﴾[2] .

إننا هنا نرى الملك يقص رؤيا رأها طالباً ممن حوله أن يعبروها له فلا يعرفون لها تعبيراً ، عندئذ يأتى ذلك الرجل ويتذكر يوسف ويقول للملك : إنه يستطيع أن يخبرهم بتعبير الرؤيا إذا أرسلوه إلى يوسف فى السجن .

وينتهى المشهد حتى دون أن نسمع من الرجل بقية الكلام الذى نفهم منه ـ طبعاً ـ أنه : فأرسلون إلى يوسف فى السجن فهو قادر على تعبير أى رؤيا ، وكأن قطع الكلام بهذا الشكل ليفيد إظهار العجلة والسرعة دليلاً على شدة لهفته على لقاء يوسف أو تألمه بسبب نسيانه .

ويبدأ مشهد آخر ، وفيه نرى جمالاً آخر يضاف إلى ما نحن بصدده .

---

(1) يوسف : 42 .

(2) يوسف : 43 ـ 45 .

فى هذا المشهد الجديد نرى الرجل فى السجن وجهاً لوجه مع يوسف يتحدث إليه ويعرض عليه رؤيا الملك .

وقد تركت فجوة واضحة بين المشهدين ، فلم تحدثنا القصة عن موافقة الملك على العرض الذى طرحه الرجل كما لم تحدثنا عن مسير الرجل إلى السجن . . إلخ

وهذه الفجوة المقصودة يمكن أن يقوم خيال المتابع للقصة بملئها مستمتعاً بذلك وهنا ـ كذلك ـ جمال جديد يضاف إلى ما سبق وهو أننا ـ هنا ـ لا نسمع كلمة «قال» التى تأتى ـ عادة ـ مع الحكاية إنما نجد النص القرآنى الكريم هكذا : ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ . . ﴾[1]

وبحذف هذه الكلمة « قال » نقل القرآن المسألة من حكاية تحكى إلى واقعة تُشاهد ومن رواية تُروى إلى شخوص حية تتحرك ، وتحول القارىء إلى مشاهد يرى ما يدور أمامه ولا يخفى ما لهذه الطريقة من تأثير .

وتلك خصيصة أخرى من خصائص القرآن الفريدة التى لا تنتهى ، والتى تعد ـ بحق ـ من دلائل إعجازه .

(1) يوسف : 46 .

ختام القصة

بعد أن عرفنا كيف نوَّع القرآن الكريم فى طرق عرض القصة ، وبعد أن ذكرنا بعض الخصائص الهامة التى تتميز بها القصة القرآنية يحسن بنا أن نشير إلى تلك الروعة البالغة والدقة الفائقة والجمال المعجز الذى يبدو بوضوح فى ختام كل قصة من قصص القرآن الكريم ، حيث يأتى الختام وقد تحققت الأهداف واكتملت العناصر فيشعر القارىء أو السامع أن هذا الختام هو أجمل ختام ، وأن أى زيادة بعد ذلك لا معنى لها .

وفى الختام ـ دائماً ـ يتأكد ذلك الإعجاز حيث يتوافق الغرض الدينى مع الجمال الفنى ، خاصة إذا ما لاخطنا تسلسل القصة فى العديد من السور التى وردت فيها مرتبة حسب النزول ، وذلك فضلاً عن روعة الختام لكل حلقة من حلقاتها على حدة ، ولنضرب بعض الأمثلة لبيان ذلك :

المثال الأول : قصة ذلك الملأ من بنى إسرائيل الذين قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله ، وهى مذكورة فى سورة البقرة ابتداء من الآية : 246 وقد تحدثنا عنها فيما مضى .

إن ختام هذه القصة يأتى بعد تحقيق النصر بإذن الله للفئة المؤمنة ـ على الرغم من قلة عددها ـ على الفئة الكافرة ـ على الرغم من كثرة عددها ـ .

إن الختام يأتى هكذا : ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (1) .

إنه لا يوجد ختام لمثل هذه القصة أكمل ولا أجمل من هذا الختام سواء من الناحية الدينية أو من الناحية الفنية .

المثال الثانى : قصة موسى ـ عليه السلام ـ ، إن آخر الحلقات عرضاً من قصة

(1) البقرة : 251 .

موسى ـ عليه السلام ـ حسب ترتيب النزول هى الحلقة المذكورة فى سورة المائدة حيث وصلت فيها معاناة موسى ـ عليه السلام ـ مع بنى إسرائيل إلى ذروتها حين رفضوا تنفيذ أمره بدخول الأرض المقدسة ، وقد جاء الرفض بطريقة وقحة حيث قالوا ما ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله : **﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** (1) .

بعد كل هذا العناء والجهد والجهاد والبذل والعطاء الذى قدمه موسى ـ عليه السلام ـ من أجل هدايتهم والنهوض بهم تكون هذه هى النتيجة ؟

فما هو الختام الذى يناسب هذه القصة دينياً وفنياً فى آن معاً ؟

إنه ليس سوى هذا الختام : موسى ـ عليه السلام ـ يدعو ربه بهذا الدعاء الذى ذكره الله فى قوله : **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾** (2) وأن يستجيب الله لدعائه فيقول : **﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾** (3) .

وهكذا تُركوا فى التيه جزاء لهم ، ومشهد التيه هو أنسب المشاهد دينياً وفنياً لختام هذه القصة .

المثال الثالث : قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مع ملكة سبأ .

إنها تبدأ بحديث مشوق يدفع إلى الإصغاء ومتابعة ما يروى ، يأتى الحديث فى البداية على لسان هدهد يخاطب سليمان ـ عليه السلام ـ قائلاً كما تذكر الآية الكريمة **﴿ . . أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾** (4) .

---

(1) المائدة : 24 .
(2) ، (3) المائدة : 25 ـ 26 .
(4) النمل : 22 ـ 26 .

ومن هذا الحديث يظهر أن تلك الدولة تحكمها امرأة تعنى بالمظاهر ، وأنها مع قومها يعبدون الشمس من دون الله ، وذلك يعنى أنها توشك على الزوال لأنها تحمل فى داخلها عوامل الضياع والانحلال .

ولما كان سليمان ـ عليه السلام ـ نبياً ملكاً فإنه يسعى للتأكد من هذه الأخبار لعل ذلك يفيد فى نشر دعوته وبسط نفوذه .

وتمضى القصة فى سياقها الممتع وعرضها الرائع البديع حتى يكون اللقاء بين سليمان ـ عليه السلام ـ وبين تلك الملكة ، وقد أمر سليمان بإعداد قصر مصنوع من زجاج فى غاية الشفافية والصفاء يمر الماء من تحته .

ثم قيل لها : ادخلى الصرح ، وإنما فعل سليمان ذلك ليريها ملكاً هو أعظم من ملكها وسلطاناً أعز من سلطانها ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، لا تشك أنه ماء تخوضه ، وذلك لدقة الصناعة وتقُّدمها فى دولة سليمان المتفوقة علمياً .

وحينئذ قيل لها : إنه صرح ممرد من قوارير . وعندئذ دعاها سليمان ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده وعاتبها فى عبادتها للشمس من دون الله .

هالها ما رأت وأدركت أنها قد ظلمت نفسها حين أشركت بالله ، وأن الخير كل الخير فى سلوك طريق الإيمان والاستسلام لأمر الله وحده ، واتباع رسوله .

ويأتى ختام القصة فى كتاب الله المعجز البديع هكذا : **﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (1) .

المثال الرابع : قصة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ .

إن آخر حلقة من هذه القصة تعرض فى سورة المائدة على النحو التالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى

(1) النمل : 40 .

وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (1) .

« فهذا الختام ختام دينى وفنى فى آن واحد لقصة كقصة عيسى ، مولده عجيب ، وعن هذا المولد نشأت شبهات تأليهه ، وحول هذه النقطة ثارت مشكلات ، فها هو ذا فى اللحظة الأخيرة أمام خالقه يعترف بعبوديته لله الواحد المنزه عن الولد والوالد والصاحبة والشريك والنظير ، ويشهد بما قاله لقومه ويبرىء ذمته من كل ما قاله الأتباع فيه مخالفين ما بلَّغهم عن الله ـ عز وجل ـ ويفوض الأمر فيهم إلى الله العزيز الحكيم » (2) .

ومن روائع هذه القصة القرآنية كذلك أن هذا الاعتراف الذى يرد فى الختام الرائع لهذه القصة يتفق تماماً مع ما قاله عيسى ـ عليه السلام ـ وهو فى المهد صبياً حين جاءت به أمه تحمله بين يديها وتلقى قومها ، يقول الله ـ تعالى ـ على لسان عيسى فى مهده : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (3) .

المثال الخامس : قصة يوسف ـ عليه السلام ـ .

عند بداية قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كما جاءت فى القرآن الكريم ـ نستمع إلى يوسف وهو يقص على أبيه رؤيا رآها فى منامه ، ثم تمضى بعد ذلك وقائع القصة حتى وصلنا إلى نهاية القصة فى تلك الآية التى تروى لنا أن الرؤيا قد تحققت حيث يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (4) .

---

(1) المائدة : 116 ـ 118 .
(2) التصوير الفنى : صـ142 بتصرف .
(3) مريم : 30 .
(4)يوسف : 100 .

وكنا قد رأينا ـ ونحن نتابع أحداث القصة ـ كيف كان لطف الله بنبيه يوسف ورعايته له ، وعندما آن الأوان لختام القصة لم يكن هناك ختام أروع ولا أبدع من ذلك الختام القرآنى للقصة حيث نرى يوسف ـ عليه السلام ـ يمد يديه إلى الله بالدعاء معترفاً بفضله وشاكراً لنعمه وسائلاً إياه حسن الختام .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْك وَعَلَّمْتَنِى من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِين ﴾ [1] .

(١) يوسف : 101

القصص القرآنى من دلائل النبوة

سبق أن ذكرنا أن للقصة فى القرآن الكريم أغراضاً متعددة ، وأن هذه الأغراض هى بذاتها أغراض القرآن الكريم نفسها كإثبات وحدانية الله ـ تعالى ـ وبيان وحدة الأديان فى أساسها وأهدافها وغاياتها كما جاءت من عند الله ، ولفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية ، وإثبات البعث والنشور ، وإثبات الوحى والرسالة بشكل عام وإثبات صدق محمد رسول الله بوجه خاص ، وغير ذلك من الأغراض .

وقد تحدثنا عن بعض تلك الأغراض بإيجاز فيما سبق .

ولما كان أعداء الإسلام قد تجمعوا من كل حدب وصوب للتشويش على نبى الإسلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتشكيك فى نبوته كراهية لدينه وبغضاً لدعوته وحقداً عليه وحسداً لأمته فقد رأينا من واجبنا أن نرد كيد الأعداء إلى نحورهم وأن نصوب سهام الحق إلى صدورهم لتكشف ما فيها من ضغن وتفضح زيفهم وتعرى باطلهم .

وأن نثبت بالحجة والبرهان أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو رسول الله حقا وأن أدلة صدقه أكثر من أن تحصى .

وقد اتجهنا إلى أقرب هذه الأدلة تناولاً وأقواها دلالة ألا وهو ما جاء فى القرآن الكريم من قصص الأولين ، ولهذا رأينا أن نفرد لهذا الغرض من أغراض القصة فى القرآن الكريم حديثاً مستقلاً نفصل فيه القول بعض التفصيل وذلك فيما يأتى .

الأنبياء مؤيدون بالمعجزات :

لقد اقتضت حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ولطفه بعباده أن يرسل إليهم رسلاً يبلغونهم رسالة الله إليهم ويبشرون من آمن بثواب الله ورضوانه وينذرون من كفر بغضب الله وعقابه .

وذلك حتى تقوم حجة الله على الخلق ، وتبطل حجج المعاندين والمكذبين ،

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (1) .

ولهذا فإنه لم تخل أمة من الأمم من رسول بعثه الله إليها لكى يأمرها بعبادة الله وحده وينهاها عن عبادة الطواغيت ، ويرشدها إلى ما يصلح أمرها فى الدنيا والآخرة يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (2) .

وقد علم الله أن بعض الخلق ممن يبحثون عن الجاه والنفوذ والشهرة سيدَّعون النبوة ويعملون على خداع الناس ببعض الحيل والأساليب ويتفننون فى صناعة الأباطيل والأكاذيب ، آملين أن يستجيب الناس لهم ويخضعوا لنفوذهم ويأتمروا بأمرهم .

ولكى يحق الله الحق ويبطل الباطل فقد أيد رسله بالمعجزات التى تدل على صدقهم فى دعوى الرسالة .

والمعجزة فى حقيقتها فعل من أفعال الله ـ تعالى ـ منزل منزلة قوله ـ سبحانه ـ عن مدَّعى النبوة : صدقت .

وقد عرف العلماء المعجزة بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدَّعى النبوة عند التحدى على وفق ما قال .

وعلماء المسلمين يرون أن للإقناع إحدى وسيلتين : إما العقل والبرهان ، وإما المعجزة المبنية على خرق العادة .

فأما البرهان العقلى : فلا يخضع له إلا ذوو العقول النيرة والأذهان الصافية والفطرة السليمة والقلوب المستشرقة للمعرفة الباحثة عن الحق والمهيأة لقبوله ، وهؤلاء قلة ، ولهذا فإن من البشر من لا يقبل دعوة الحق إلا إذا رأى أمراً خارقاً

(1) النساء : 165 .
(2) النحل : 36 .

للعادة ولمس بيده شيئاً متصوراً للعقل معجزاً للبشر ، وبه تقوم عليه الحجة ، ويلزمه حينئذ تصديق من جرت على يديه المعجزة .

وعلى الرغم من تأييد الله لرسله بالمعجزات فإن المكذبين لجوا فى كفرهم وعنادهم وزعموا أن تلك الخوارق التى أجراها الله على يد أنبيائه ليست إلا سحراً يخدعون به الناس ، وقد توارثت أجيال الكافرين هذا الزعم جيلاً بعد جيل على الرغم من تهافت هذا الزعم ووضوح بطلانه .

وهذا بعض ما سجله القرآن الكريم حول ما جرى بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) .

وهذا هو ما جرى مع عيسى ـ عليه السلام ـ يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (2) .

ومثل هذا ما قاله أهل مكة عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الله تعالى ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (3) .

كما أن المكذبين فى كل جيل اتهموا الأنبياء بالجنون على الرغم من رجاحة عقلهم المعروفة للكافة ، ولما كان موقف الكفار كلهم من أنبيائهم مستقراً على هذا الوضع قال الله ـ تعالى ـ منددا بهذا المسلك : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (4) .

والمعنى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يسلى رسوله ويقول له : كما كذبك قومك

---

(1) الشعراء : 30ـ34 .

(2) الصف : 6 .

(3) ص : 4 .

(4) الذاريات : 52ـ55 .

وقالوا عنك ساحر أو مجنون كذلك كذَّب الذين من قبلهم وقالوا مثل قولهم ، فهل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب واتفقوا على هذا القول ؟ لا ، وإنما هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم .

والخلط بين السحر والمعجزة باطل ومتهافت من وجهين كما يقول الإمام الماوردى :

الوجه الأول : أن الشعبذة تظهر لذوى العقول وتتدسس على الغُر الجهول ، فخالفت المعجزة التى تذهل لها العقول .

الوجه الثانى : أن الشعبذة تستفاد بالتعلم فيتعلمها من ليس يحسنها فيصير مكافئاً لمن أحسنها ويعارضه بمثلها ، والمعجزة مبتكرة لا يتعاطاها غير صاحبها ، ولا يعارضه أحد بمثلها كما انقلبت عصا موسى حية تسعى تلقف ما أفكه السحرة(1) .

فضل معجزة محمد على سائر المعجزات :

وقد ختم الله النبوات بنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأيده بالمعجزات كما أيد الأنبياء من قبله ، وفى هذا يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىَ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة** »(2) .

وهذا الحديث الشريف يشير إلى أمرين هامين :

أولهما : أن المعجزة الكبرى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحى يُتلى خالد مع الزمن ، وهو القرآن الكريم ، وأن من شأن هذه المعجزة أن تكون أعظم أثراً ، وبها يكثر أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد وقع ذلك بالفعل ، وهذا من دلائل النبوة .

ثانيهما : أن هذه المعجزة التى أيده الله بها أفضل من المعجزات التى أيد الله

(1) أعلام النبوة للماوردى ، نقلاً عن كتاب الوحى القرآنى فى المنظور الاستشراقى ونقده للدكتور محمود ماضى صـ 58 .
(2) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

بها الأنبياء من قبله ، ووجه أفضلية القرآن الكريم على سائر معجزات الأنبياء السابقين يظهر مما يأتى :

(1) معجزات الأنبياء السابقين كانت مادية ملموسة وشأنها أن تؤثر فيمن شاهدها وحضرها أو من صدق بخبرها بعد غيابها ، وهذا يعنى أن تأثيرها محدود ، بخلاف معجزة القرآن الكتاب الخالد فإن تأثيرها باق ومستمر ببقائه وقد ضمن الله له الحفظ والخلود فقال ـ سبحانه ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (1) .

(2) معجزات الأنبياء السابقين كانت لتأييد صدقهم فقط ، أما رسالتهم فكانت متضمنة فى كتب أو صحف أنزلها الله عليهم أو على من سبقهم .

وإذا كان تأثير المعجزة المادية المحسوسة يظل قليلاً أو محدوداً حتى يتلاشى مع الزمن فإن الرسالة نفسها معرضة هى أيضاً للتلاشى مع الزمن ، ولهذا كانت مهمة الأنبياءالسابقين محصورة فى أقوامهم ولم تكن لها صفة العموم ولا الخلود ، بعكس رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى أراد الله لها أن تكون عامة وباقية فلذا جعل الله معجزة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى أراد الله لها أن تكون عامة وباقية فلذا جعل الله معجزة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى عين رسالته ، ورسالته هى عين معجزته ، فبقاء الكتاب المعجز يعنى بقاء المعجزة وبقاء الرسالة معاً ، ولذا كان التحدى بالقرآن مستمراً إلى يوم القيامة وشاملاً لجميع الخلق ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (2) .

(3) لقد تكفل الله ـ تبارك وتعالى ـ بالمحافظة على القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل ولم يتكفل بالمحافظة على أى كتاب من الكتب السابقة وإنما وكلّ أمر المحافظة عليها إلى مَن آمنوا بها حيث يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ . . ﴾ (3) .

---

(1) الحجر : 9 .
(2) الإسراء : 88 .
(3) المائدة : 44 .

ولكن هؤلاء الذين كلفهم الله بالمحافظة على كتبه السابقة حرّفوها وتلاعبوا بها كي تتفق مع أهوائهم وليحققوا بها مآربهم الذاتية ، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (1) .

وإنما تكفل الله بالمحافظة على القرآن الكريم ولم يتكفل بالمحافظة على الكتب السابقة لأن ذلك مقتضى الحكمة الإلهية البالغة فلو أن تحريفاً لحق بالقرآن الكريم فمن الذى سيقوم بالتصحيح وقد ختمت النبوات بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث لا نبى بعده كما قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (2) .

أما إذا لحق التحريف الكتب السابقة فقد باء بإثم ذلك التحريف من فعلوه وسيأتى النبى اللاحق ليعيد الأمر إلى نصابه ويقوم بتصحيح ما أدخله الناس من تحريفات على تعاليم النبى الذى سبقه ، وهذا واضح تماماً فيما أنزله الله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد وصف الله الكتاب المنزل عليه بأنه المصدق لما بين يديه من الكتب والمهيمن عليها ، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . .﴾ (3) .

وجوه إعجاز القرآن :

وجوه إعجاز القرآن الكريم متعددة وقد أفاض العلماء فى الحديث عنها ، ونحن نذكر بعضها فيما يأتى :

(1) البقرة : 75ـ79 .
(2) الأحزاب : 40 .
(3) المائدة : 48 .

أولاً : بلاغة القرآن الكريم :

من المعلوم بالتواتر أن العرب الذين بعث فيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة ، وقد بلغ من شدة عنايتهم بهذا الشأن أنهم كانوا يتجمعون فى بعض أسواقهم للاستماع إلى أجود الخطب والأشعار ، ويتسابق كبار الخطباء والشعراء بين يدى المحكمين والنقاد ، ثم تمنح الجوائز للمجيدين حتى وصل الحال بهم إلى تعليق عدد من القصائد الفائزة على باب الكعبة ـ وهى أقدس مكان عندهم ـ احتفاء بتلك القصائد واعترافاً بنبوغ قائليها .

فلما بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت معجزته التى تحداهم بها عبارة عن كلام عربى فصيح مفهوم مركب من جنس كلامهم بحروفه وتراكيبه ولكنه ليس كشعرهم ولا نثرهم ولا خطبهم ، وتحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ـ وعلى الرغم من تكذيبهم له وإصرارهم على الكفر به ـ فقد عجزوا وبهتوا أمام هذا التحدى المتكرر ، ولذا قال الله ـ سبحانه ـ : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (1) .

ومعناه أن الله ـ تعالى ـ يخبر عن عجزهم المستمر فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وذلك فى قوله ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا** ﴾ يعنى الآن وفيما مضى ﴿ **وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ يعنى لن تطيقوا ذلك فى المستقبل فاحذروا غضب الله وعقابه وآمنوا برسوله .

وفيه إشارة قوية لحفزهم على المحاولة وقبول التحدى ليكون عجزهم أبدع . وهذا من الغيوب التى أخبرهم بها القرآن الكريم قبل وقوعها فقد ظل عجزهم مستمراً فعلاً .

ومن الواضح أنه إذا كان العرب فى عصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عجزوا عن الإتيان بمثله فإن غيرهم وكذا من يأتى بعدهم يكون أشد عجزاً ، وبذلك يثبت عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله .

(1) البقرة : 23ـ24 .

ولما لم يأت العرب بمثل القرآن علمنا أنهم أعرضوا عن الإتيان به للعجز عنه ، كما أن سحرة فرعون فى زمان موسى عجزوا عن معارضته فبان به كونه محقاً فى دعواه ، ولذا كان السحرة أول الساجدين ، وكما أن عيسى فى أيامه أعجز الأطباء عن مثل ما أتى من إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله ، يقاس على ذلك ما كان فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث بلغت البلاغة أوجها وارتقت إلى الدرجات العلى وكانوا يفاخرون بها حتى علقوا القصائد السبع بباب الكعبة ـ وهى المعروفة بالمعلقات السبع ـ تحدياً بمعارضتها ، كما تشهد بذلك كتب السيرة .

فلما أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما عجز عن مثله جميع البلغاء ـ ولم يكن شاعراً ولا خطيباً ـ عُلم أن ذلك من عند الله قطعاً .

وقد قيل : « إن الذى أورده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على العرب من الكلام الذى أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب فى الآية وأوضح فى الدلالة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة بكلام مفهوم المعنى عندهم ، وكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح ـ عليه السلام ـ عند إحياء الموتى لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا فى إبراء الأكمه والأبرص ، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل ذلك على أن العجز عنه إنما كان عَلَمَاً على رسالته وصحة نبوته ، وتلك حجة قاطعة »[1] .

ثانيا : الإخبار عن أمور من الغيب :

لقد ذكر القرآن الكريم أموراً من الغيب الماضى ومن الغيب المستقبل وثبت صدقه فيها جميعاً ، وذلك لايكون إلا إذا كان من كلام الله ـ عز وجل ـ .

وهذه بعض أمثلة

(1) يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾[2] .

---

(1) من كتاب الوحى القرآنى فى المنظور الاستشراقى ونقده صـ 79 .
(2) الروم : 1ـ5 .

وعند التأمل فى هذه الآيات نجد فيها إخباراً عن ثلاثة أمور كلها من الغيب :

أ ـ قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ولا يعلم ما سيحدث فى المستقبل إلا الله .

ب ـ قوله ـ سبحانه ـ : ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ وتحديد زمن سيقع فيه الحدث ـ وهو البضع الذى لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة ـ هو أيضاً من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

جـ ـ قوله ـ عز وجل ـ : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وهو إخبار بأمر يسبب فرحاً للمؤمنين فى المستقبل وهو يدل على بقاء المؤمنين إلى أن يتحقق ذلك الفرح على الرغم من قلة عدد المؤمنين وضعفهم وطمع الأعداء فى القضاء عليهم ، وكل ذلك من دلائل النبوة .

ويعلق « جيبون » على هذه الآيات بقوله : « فى ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذه النبوة لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً ، لأن السنين الاثنتى عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية »[1] .

وذلك يعنى أن واقع الإمبراطورية الرومانية كان يؤذن بانهيارها ، وأن نبوءة القرآن عن انتصار الروم أبعد عن التصديق بالنظر إلى الواقع بمقياس العقل ، ولكن ما أخبر به القرآن الكريم قد تحقق ، وذلك من دلائل نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(2) وقف أبو لهب وزوجه أم جميل موقف العداء والإيذاء لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكذيبه فى دعوته ، فبشر الله رسوله بأن ذلك لا يضره ، وأن أبا لهب وزوجه سيموتان على الكفر ويكونان من أصحاب النار ، وقد نزل الإخباربذلك فى مكة بينما أبو لهب وزوجه فى غاية الصحة والعافية ، وعاشا بعد ذلك ما شاء الله ثم ماتا على الكفر وصارا من أهل النار ، مع أن غيرهما من الكافرين ـ ممن لم يذكر عنهم القرآن شيئاً من ذلك ـ أسلموا وحسن إسلامهم .

---

(1) من مقال للأستاذ محمد صدر الدين الحسن الندوى ، نقلاً عن كتاب الوحى القرآنى فى المنظور الاستشراقى ونقده ، صـ 72 .

وهذا هو ما نزل بمكة فى شأن أبى لهب وزوجه ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (1) .

(3) لما زعم اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وأنهم أولياء لله من دون الناس تحداهم الله ـ سبحانه ـ وأنزل على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

أى إذا كنتم أيها اليهود تزعمون أنكم على الهدى وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين ثم أخبر الله أنهم لن يفعلوا ذلك ولن يتمنوا الموت ، وقد أعلن رسول الله ذلك وواجههم به فامتنع اليهود من الإجابة لعلمهم أنهم إن فعلوا هلكوا فى التو واللحظة ، فقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس أنه قال : « لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » وقال ابن جرير فى تفسيره : « وبلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا** »

وهذا يعد من أكبر الدلالات على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحة نبوته لأنه أخبر بالشىء قبل وقوعه وهو أنهم لن يتمنوا الموت فكان كما أخبر ، ولو لم يكن هذا الإخبار من الله ـ تعالى ـ لما جاز للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخبر به خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه .

(4) الإخبار عن أمور كثيرة من الغيب الذى مضى مثل أخبار الأنبياء السابقين وما جرى لهم مع أممهم وكيف كانت عاقبة المكذبين وكيف نصر الله المؤمنين .

وما كان لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلم شيئاً من ذلك إلا عن طريق الوحى لأنه لم يجلس إلى معلم وما كان يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه ، بل إنه أخبر

---

(1) سورة المسد .
(2) الجمعة : 6 ـ 7 .

بأمور موغلة فى القدم لم تكن معروفة وما كان محمد مؤرخاً ولا ملماً بدراسة اللغات القديمة ولا كان أحد من العرب يعرف شيئاً عن هذه الأحداث ، وذلك كثير فى القرآن الكريم .

ثالثاً : من دلائل الإعجاز فى القرآن الكريم إعجازه بما جاء فيه من العلوم الدينية والتشريعية وغيرها من العلوم . وكذلك إعجازه بخلوه من الاختلاف والتناقض مع ما فيه من الطول وتنوع الموضوعات والقضايا والمسائل ، وقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى هذه الحقيقة فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾[1] .

رابعا : من دلائل الإعجاز فى القرآن الكريم إعجازه بقدرته العجيبة على التأثير يقول المرحوم سيد قطب .

« يجب أن نبحث عن منبع السحر ـ يقصد قوة التأثير ـ فى القرآن قبل التشريع المحكم وقبل النبوءة الغيبية وقبل العلوم الكونية ، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله .

فقليل القرآن هو الذى كان فى أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التى جاءت فيما بعد ، وكان مع ذلك محتوياً على المنبع الأصيل الذى تذوقه العرب فقالوا : إن هذا إلا سحر يؤثر ، لنجد الجمال الفنى الخالص عنصراً مستقلا بجوهره خالد فى القرآن بذاته يتملاه الفن فى عزلة عن جميع الملابسات والأغراض ، وأن هذا الجمال ليتملى وحده فيغنى ، وينظر فى تساوقه مع أغراض الدعوة الدينية فيرتفع فى التصوير .

التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان وهو الطريقة التى يتناول بها جميع الأغراض ، وهو الحقيقة التى لا يخطئها الباحث فى جميع الأجزاء »[2] .

ويقول الزمخشرى فى تفسيره مشيراً إلى جوانب الإعجاز البيانى فى القرآن :

---

(1) النساء : 82 .   (2) التصوير الفنى فى القرآن صـ 18 وما بعدها .

«لا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، فارساً في علم الإعراب ، ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم ويرصف »[1] .

وهذا الذي يقوله الزمخشري ضروري بالنسبة لمن جاءوا بعد عصر النبوة ، أما العرب الخلص الذين كانوا في عصر النبوة والذين خاطبهم القرآن وتحداهم فلم يكونوا في حاجة إلى تعلم هذه العلوم ـ التي استحدثت فيما بعد ـ لأنهم كانوا مدركين لعظمة القرآن وسمو منزلته بسليقتهم وفطرتهم ، وقد أسلم بعضهم لمجرد سماع القرآن كما هو معروف .

وحول إعجاز القرآن يقول المستشرق الفرنسي « موريس بوكاي » :

« لقد أثارتني هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن . . والتي جاءت مطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة وذلك في نص كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

كان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة بجملة مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية ، وانتبهت بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات التي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون عنها أدنى فكرة ، وعلى حين تجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن خطأ .

وقد دفعني ذلك للتساؤل : لو كان مؤلف القرآن إنساناً ، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟!

(1) تفسير الكشاف جـ 1 / صـ 3 .

ليس هناك أى مجال للشك ، فنص القرآن الذى نملكه اليوم هو فعلا نفس النص الأول، ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى ذلك العصر استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية ، فيما يتعلق بالأمور التى يمكن أن تخضع للملاحظة مثل تطور الجنين البشرى يمكن تماماً مقابلة مختلف المراحل الموصوفة فى القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديثة لنكتشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم »[1] .

أمية الرسول تؤكد صدقه :

إن أمية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقة تاريخية مؤكدة أيدتها جميع الشواهد وأثبتها القرآن الكريم فى مواضع متعددة .

منها ما جاء فى بيان أوصافه التى ذكر بها فى التوراة والإنجيل ، وذلك فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ . .** ﴾[2] .

ومنها قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾[3] .

وقد برهن القرآن الكريم بأمية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ربانية تعاليمه وأنه صادق فى دعوى الرسالة ، كما يؤكد بصريح العبارة أنه لم يسبق له أن قرأ كتاباً قبل القرآن أو كتب شيئاً بيده .

ولا شك أن معارضيه كانوا يعرفون أنه أمى لم يقرأ ولم يكتب من قبل ، ولذلك لم يكذبوه فى دعوى الأمية بل صدر منهم ما يدل على اعترافهم بأميته ، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾[4] .

فلم يقولوا كتبها لعلمهم أنه لا يقرأ ولا يكتب وإنما زعموا أنه اكتتبها أى كتبها له غيره ويمليها عليه .

---

(1) كتاب دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة صـ144 وما بعدها .
(2) الأعراف : 157 .
(3) الجمعة : 2 .
(4) الفرقان : 5 .

ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُون ﴾[1] .

يقول الإمام ابن تيمية : « بين ـ سبحانه ـ من حاله ما يعلمه العامة والخاصة وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يخط كتاباً من الكتب المنزلة ولا غيرها ، ولا يقرأ شيئاً مكتوباً لا كتاباً منزلاً ولا غيره ، ولا يكتب بيمينه ولا ينسخ شيئاً من كتب الناس لا المنزلة ولا غيره »[2] .

إن محمداً كان يعيش بين الناس فى مكة ويعرفونه جيداً ويعلمون علم اليقين أنه أمى ، ولو كان يعرف شيئاً من القراءة لارتاب فى أمره المبطلون من المشركين وقالوا لعله تعلمه من غيره وكتبه بيده ولكنهم لم يفعلوا على الرغم من عداوتهم له ، وذلك يعنى اعترافهم بهذه الحقيقة .

وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المستشرقين ومن تبعهم من المنافقين فى العصر الحديث زعموا أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ ويكتب ، كما زعموا لتأكيد إفكهم هذا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب صلح الحديبية بيده مع أن الروايات المعروفة والمشهورة فى كتب السنة ترد هذا الزعم وتبطله .

فعن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « كتب على بن أبى طالب الصلح بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين يوم الحديبية ، فكتب : « **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله** » ، فقالوا : لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ، قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : « **امحه** » ، فقال : ما أنا بالذى أمحاه فمحاه النبى بيده »[3] .

وقد بينت رواية أخرى عن البراء أيضا كيف محاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث جاء فيها « فأمر ـ أى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً أن

(1) العنكبوت : 48 .
(2) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ 4 صـ 31 .
(3) رواه مسلم .

يمحاه فقال على : لا والله لا أمحاه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أرنى مكانها » ، فأراه مكانها فمحاه وكتب ـ أى على ـ : ابن عبد الله »[1] .

ومن هنا يظهر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد محاها بيده فعلاً لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد رفض علىّ وبعد أن أراه مكانها ، وذلك يدل دلالة قاطعة على أمية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبطلان ما زعمه الأفاكون من المستشرقين ومن لف لفهم .

وأعداء الإسلام أجهدوا أنفسهم وخرجوا على مقتضيات البحث العلمى النزيه لكى ينفوا أمية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتوصلوا من ذلك إلى ادعاء أشد بطلانا ، وهو أن محمداً تعلم على يد أهل الكتاب ، وهو ادعاء لا يقوم على أى دليل بل الأدلة قائمة وقاطعة على أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام بتصحيح الأباطيل الكثيرة التى يذكرها أهل الكتاب ودونتها كتبهم التى بأيديهم ، وسنوضح ذلك فيما يأتى إن شاء الله .

على أن بعضاً آخر من المستشرقين أنفسهم أكدوا من خلال البحث العلمى النزيه أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومن هؤلاء توماس كارليل الذى عقد فصلاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكلم فيه عن أميته فقال : « إن محمداً لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يعرف الخط ولا القراءة »[2] .

بين قصص القرآن وقصص التوراة والإنجيل :

من المغالطات المكشوفة والمزاعم المفضوحة ما ورد على لسان بعض أعداء الإسلام أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ القصص التى جاءت بالقرآن من قصص التوراة وما ورد عن أهل الكتاب .

وسنورد هنا بعض أقوال هؤلاء ثم نقوم بتفنيدها والرد عليها ثم نثبت بالدليل القاطع أن القصص القرآنى فى صدقه ودقته يعد من دلائل نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(1) رواه مسلم .
(2) كتاب الأبطال نقلاً عن كتاب الوحي القرآني ، مرجع سابق صـ 115 .

(1) يقول المستشرق « جرنيباوم » : « إن الإسلام يمزج دائماً بين المقدرة على تمثيل العناصر الأجنبية مع درجة معينة من العزوف عن الإقرار بالأصول التى استمدت منها » .

يريد أن يقول : إن محمداً يقتبس الكثير مما يقوله من مصادر خارجية وإن كان لا يعترف بهذه المصادر التى استمد منها .

(2) ويأتى «فليب متى» فيردد نفس المزاعم ولكن بعبارة أكثر وضوحاً فيقول : « وتكاد كل القصص التاريخية فى القرآن أن يكون لها نظير فى التوراة باستثناء بعض قصص قلائل عربية خالصة تشير إلى عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل » .

(3) أما المستشرق اليهودى « جوبتن » فيبالغ فى الافتراء ويقول : « ولقد أتى محمد بقصص تكاد تطابق ما جاء فى التوراة مع بعض التشويه لبعض الحقائق عن الأنبياء ، وربما نتج ذلك عن شعوره بأنه خير هؤلاء جميعاً وخاتمهم ، ولقد شملت قصصه بعض أنبياء بنى إسرائيل كنوح وسفينته وإبراهيم وزوجته وموسى ومعجزاته الحسية ، وداود وسليمان وتوليهما الملك وتزويدهما بالحكمة وغيرهم ولكن أغفل ذكر كثير من الأنبياء والملوك ذوى الشأن فى الديانة اليهودية » .

(4) ولكى يتم نزع ثوب القداسة تماماً عن الوحى القرآنى بتأكيد أنه بشرى وأنه منقول عن التوراة أو الإنجيل بالغ مستشرق آخر هو « كايتانى » فقال : « واستطاع ابن عباس زمن الفتوحات الكبرى أن يتفهم بوضوح تفوق الحضارة المسيحية وأن يتعرف على العديد من العيوب والثغرات المخجلة للعقيدة الجديدة التى حاول محمد خلق أساس لها فى تاريخ اليهود القديم ، ولكنه ـ أى محمد ـ لم يوفق بشكل تام فى ذلك فتأهب ابن عباس لسد هذه الثغرة ودرء هذه العيوب »[1] .

يريد « كايتانى » أن يمنح الثقة لما نسب زوراً إلى ابن عباس مما هو مرفوض ومعروف لدى علماء المسلمين تحت اسم « الإسـرائيليات » . فيزعم « كايتانى » أنها

(1) بتصرف يسير من كتاب الوحى القرآنى فى المنظور الاستشراقى ونقده ، صـ 134 وما بعدها .

كانت عمليات تصحيح لما فعله محمد حين نقل من كتب أهل الكتاب ولم يوفق فجاء ابن عباس ليقوّم العوج ويصحح الأخطاء .

ونستطيع تلخيص هذه الأباطيل فيما يلى .

(1) محمد اقتبس القصص التى ذكرها فى كتابه من القصص الواردة فى التوراة .

(2) محمد لم يشر إلى المصادر التى اقتبس منها بسبب استعلائه على الأنبياء السابقين ولذا فقد غمطهم حقهم واحتقرهم وقلل من شأنهم لكى يظهر هو بمظهر البطولة ويزعم أنه خاتم النبيين .

(3) لم يكتف محمد بالنقل من التوراة وإنما شوه بعض الحقائق التاريخية عما كانت عليه فى التوراة .

(4) لقد نسى محمد أن يذكر بقية القصص التى ذكرتها التوراة عن بقية الأنبياء والملوك العظام .

(5) عملية النقل عن التوراة والإنجيل استمرت بعد محمد على يد ابن عباس وكان ذلك لتصحيح الأخطاء العقدية وغيرها مما وقع فيه محمد أثناء قيامه بعملية النقل ، وهذا يعنى أن الإسلام كله عمل بشرى ولا أثر فيه للوحى الإلهى وأنه منقول من التوراة والإنجيل مع بعض التحريفات الخطيرة التى لحقت بالعقيدة نفسها .

ويكفى للرد على كل هذه الأباطيل أن يطلع القارىء ـ مجرد اطلاع ـ على ما جاء فى التوراة أو الإنجيل ويطلع على ما جاء فى القرآن ليكتشف زيف هذه الادعاءات ويظهر وجه الحق ناصعاً كشمس الضحى .

حديث القرآن عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

إن من يطلع على قصص الأنبياء فى القرآن الكريم يجد أن الله تبارك وتعالى قد رفع ذكرهم وأعلى قدرهم ، فهم أئمة الهدى وأولوا الفضل والنهى ، وهم الذين

صنعهم الله على عينه ورعاهم برعايته واصطفاهم من بين خلقه كما أن الله اختصهم بصفات الكمال الخَلقية والخُلُقية ، فهم السفراء الأمناء فى حمل رسالة الله وتبليغها إلى الناس وهم الذين اختارهم الله لهداية خلقه وتعريفهم بالله وما يليق به وقيادة البشر على طريق الهداية والاستقامة ، وآيات القرآن الكريم تصفهم بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعلمية وتنزههم عن كل ما يشينهم أو يقدح فى أخلاقهم .

ولهذا كله فإن جمهور علماء المسلمين عندما يتحدثون عن عقيدة الإسلام الصحيحة يقولون إن الأنبياء جميعاً معصومون قبل النبوة وبعدها .

ولأنهم بهذه المنزلة فقد جعلهم الله ـ تعالى ـ فى موضع القدوة والأسوة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . . ﴾ (1) .

وهذه بعض آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الأنبياء والمرسلين :

* يقول الله ـ تعالى ـ عن نوح ـ عليه السلام ـ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . . ﴾ (2) .

* ويقول الله ـ تعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِين ﴾ (3) .

* ويقول عنه أيضاً : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (4) .

* ويوجه الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ للاقتداء بأبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيقول ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ (5) .

(1) الأنعام : . 90.
(2) هود : 48 .
(3) الأنبياء : 51 .
(4) البقرة : 130 ـ131 .
(5) النحل : 123 .

* كما يبين الله ـ تبارك وتعالى ـ فضل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ (1) .

* كما يذكر الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وبمنزلتهم العالية عند الله ، فيقول الله ـ سبحانه ـ ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (2) .

* ويضم الله إليهم لوطاً ـ عليه السلام ـ ويقول في حقهم جميعاً : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (3) .

* ويثني الله ـ تبارك وتعالى ـ على إسماعيل واليسع وذا الكفل ويذكر محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفضلهم ومنزلتهم عند الله فيقول ـ سبحانه ـ ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (4) .

* ويقول الله عن إسماعيل ـ عليه السلام ـ مذكراً بفضله : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (5) .

* ويثني الله ـ عز وجل ـ على نبيه داود ـ عليه السلام ـ ويضعه في موضع القدوة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (6) .

---

(1) مريم : 41 .
(2) ص : 45ـ47 .
(3) الأنبياء : 71ـ 75 .
(4) ص : 48 .
(5) مريم : 54 ـ55 .
(6) ص : 17 ـ 20 .

* كما يقول عنه أيضاً : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (1) .

* ويثني الله على سليمان ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (2) .

* كما يثني الله عليهما معاً فيقول : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا . . ﴾ (3) .

* ويثني الله ـ سبحانه ـ على أيوب ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ . . إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (4) .

* ويثني الله ـ سبحانه ـ على موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ، ويلفت نظر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى فضلهما فيقول : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ (5) .

* ويمن الله ـ تبارك وتعالى ـ ببعض نعمه على موسى ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (6) .

* ويثني الله ـ عز وجل ـ على يوسف ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (7) .

* كما يقول عنه أيضاً: ﴿ . . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (8) .

* ويثني الله ـ تبارك وتعالى ـ على عيسى ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ إِذْ قَالَتِ

(1) ص : 25 .
(2) ص : 30 .
(3) الأنبياء : 78ـ82 .
(4) ص : 44 .
(5) مريم : 51 ـ 53 .
(6) طه : 39 .
(7) يوسف : 22 .
(8) يوسف : 24 .

الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

* ويثنى الله ـ سبحانه ـ على جمهرة الأنبياء جميعاً فيقول : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (2) .

هذا قليل من كثير مما ذكره القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله ، فأين هذا مما ذكر عنهم فى التوراة والأناجيل التى بأيدى اليهود والنصارى ؟ وهانحن نذكر بعضه فيما يأتى ليتسنى للقارىء أن يعرف الفرق واضحاً ،. ونحن نستغفر الله مما يجرى ذكره على القلم أو اللسان من القبائح المنسوبة إليهم ـ عليهم السلام ـ.

حديث التوراة والإنجيل عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ .

ما سنورده هنا قليل من كثير مما جاء فى توراتهم وفى أناجيلهم منسوباً إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ونحن من جانبنا نبرىء ساحة الكتب المنزلة من عند الله من أن تشمل مثل هذا الإفك ، لأن القرآن الكريم الذى نزل بالحق نزه الكتب المنزلة عن ذلك حيث يقول الله ـ تعالى ـ عن التوراة المنزلة على موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . ﴾ (3) .

ويقول الله ـ عز وجل ـ عن الإنجيل المنزل على عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَقَفَّيْنَا

(1) آل عمران : 45 ـ 46 .
(2) الأنعام : 83 ـ 90 .
(3) المائدة : 44 .

عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

وما سنذكره هنا نقلاً عن التوراة والأناجيل التى بأيدى اليهود والنصارى لا يمت إلى الهدى والنور وموعظة المتقين بصلة ، وإنما فيه نسبة المعاصى وكبار الفواحش إلى الأنبياء حتى صاروا قادة للفجور وروداً للدعارة والوقوع فى أفظع الجرائم التى وصلت إلى الكفر والشرك بالله وعبادة الأصنام ، مما يعد تحريضاً للناس على ارتكاب تلك الفواحش والوقوع فى تلك المنكرات ، وبدلاً من أن يكون الأنبياء قادة للناس فى الهداية وفعل الخيرات صاروا قادة لهم فى الضلالة وفعل القبائح والمنكرات وهذه بعض الأمثلة :

* جاء فى سفر التكوين : أن ابنتى سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ قدمتا لأبيهما النبى الكريم خمراً فشربه وسكر وزنا بهما واحدة بعد الأخرى فى ليلتين متتاليتين ويذكر هذا النص أنهما حملتا منه بالزنا وأن الكبرى ولدت ولداً ودعت اسمه « موآب » وهو أبو الموابين إلى اليوم ، وأن الصغرى ولدت ولداً ودعت اسمه « عمان » وهو أبو العمانيين إلى اليوم » [2] .

* جاء فى سفر الملوك الثانى أن داود ـ عليه السلام ـ تآمر على واحد من قاده جيشه الصالحين وقتله بالحيلة بعد أن زنا بزوجته ثم ضمها إلى باقى زوجاته وهذا هو النص : « كان داود يتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة جداً ، فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : امرأة « أوريا » فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة من داود فكتب داود مكتوباً يقول فيه : اجعلوا «أوريا » فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت » [3] .

ومن العجيب أنهم يزعمون أن هذا السفر قد كتب بإلهام من الله ، وهو واجب التسليم ، وكل ما فيه صدق مع أنه ينسب إلى هذا النبى الكريم تلك الموبقات ،

(1) المائدة : 46 .
(2) سفر التكوين الفصل : 19 : 30ـ38 .
(3) سفر الملوك الثانى الفصل : 11 : 2ـ17 .

وفي الوقت نفسه يذكر هذا السفر نفسه ما يناقض ذلك تماماً بشأن داود ـ عليه السلام ـ إذ جاء فيه ما يأتي : « يكافئني الرب حسب بري ، حسب طهارة يدي يرد عليَّ لأني حفظت طرق الرب ولم أعص إلهي لأن جميع أحكامه أمامي ، وفرائضه لا أحيد عنها ، وأكون كاملاً لديه ، وأتحفظ من إثمي ، فيرد الرب على كبري وطهارتي أمام عينيه »[1] .

* جاء في سفر الملوك الثالث : «أن نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب أبيه داود فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين ، وأوصاه أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصاه به الرب »[2] .

* وجاء في موضع آخر عن سليمان أيضاً : « وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى »[3] .

* جاء في سفر التكوين : « أن يهوذا بن يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو من الأسباط ـ زنا بزوجة ابنه وحملت منه بالزنا ، وأنجبت توأمين هما فارص وزارح »[4]

* جاء في سفر العدد أن موسى وهارون لم يكونا مؤمنين بالله ، والذي لا يكون مؤمناً يكون كافراً وهذا هو النص : « فقال الرب لموسى وهارون : إنكما لم تؤمنا بي ، ولم تقدساني على عيون بني إسرائيل ، لذلك لا تُدخلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيتها لهم »[5] .

* « نسب سفر الخروج إلى موسى ـ عليه السلام ـ أنه أوصى بني إسرائيل ليلة خروجهم من مصر أن يسرقوا من المصريين حليهم وأمتعتهم ففعلوا »[6] .

---

(1) سفر الملوك الثاني الفصل 22 : 21 ـ 25 .
(2) سفر الملوك الثالث الفصل 11 : 4 ـ 13 .
(3) سفر الملوك الثاني الفصل 11 : 1 ـ10 .
(4) التكوين 38 : 12 ـ 30 .
(5) سفر العدد 20 : 12 .
(6) خروج 12 : 35 ـ 36 .

* والأدهى من ذلك أنه جاء فى نفس السفر أن هذه السرقة تمت بأمر الله ـ سبحانه ـ وهذا هو النص المنسوب إلى الله عز وجل « (21) وأهب الشعب خطوة فى عيون المصريين فإذا انصرفتم فلا تنصرفون فارغين (22) بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب وثياباً تجعلونها على بنيكم وبناتكم وتسلبون المصريين »[1] .

* جاء فى سفر هوشع أن الله ـ تبارك وتعالى ـ عما يقولون علواً كبيراً أمر هوشع أن يزنى مع أنه معدود عندهم من الأنبياء ، يقول النص : « بداءة كلام الرب بلسان هوشع : قال الرب لهوشع : انطلق فاتخذ لك امرأة زنى وأولاد زنا فإن الأرض تزنى زنى عن الرب ، فانطلق واتخذ « جومر » بنت « دبلائيم » فحبلت وولدت له ابنا . . »[2] .

وقد سارت الأناجيل على نهج أسفار العهد القديم . وهذه بعض الأمثلة :

* « جاء فى إنجيل متى أن عيسى من نسل سليمان بن داود وأن جدهم الأكبر هو فارص المولود من الزنا من يهوذا بن يعقوب الذى زنا بثامار »[3] . كما ذكرنا فى ذلك فيما سبق .

* « جاء فى إنجيل يوحنا أن يسوع شهد بأن جميع الأنبياء الذين قاموا فى بنى إسرائيل هم سُراق ولصوص »[4] .

* « وجاء فى الإنجيل نفسه أن يسوع أهان أمه فى وسط جمع الناس »[5] ، علماً بأن العهد القديم جاء فيه الأمر بإكرام الأب والأم وجعل جزاء من يلعن أباه أو أمه القتل ، وهذا ما جاء فى هذا الصدد فى سفر الخروج « أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك »[6] « ومن لعن أباه أو أمه فليقتل قتلاً »[7] .

---

(1) خروج 3 : 21 ـ 22 .
(2) هوشع 1 : 2 ـ 4 .
(3) متى 1 : 10 .
(4) يوحنا 10 : 48 .
(5) يوحنا 2 : 4 .
(6) سفر الخروج 21 : 12 .
(7) سفر الخروج : 21 : 17 .

وما هى النتيجة ؟

بعد أن ذكرنا العديد من الآيات القرآنية التى تتحدث عن الأنبياء - عليهم السلام - بكل إجلال واحترام ، وتصفهم بالأوصاف اللائقة بهم .

وبعد أن ذكرنا نماذج مما جاء فى كتب أهل الكتاب من أوصاف وتصرفات منسوبة إلى الأنبياء والمرسلين وكلها تسىء إليهم وتجعلهم فى عداد السفلة والمجرمين .

وبعد أن ذكرنا نماذج قليلة مما فى كتبهم منسوباً إلى الله - تبارك وتعالى - من أوصاف لا تليق بجلاله وعظمته وألوهيته حيث يأمر الله بالسرقة والزنا - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - .

ومن المعلوم أن وصف الله - تعالى - بمثل هذه الأوصاف مسلك سلكه الكفار والمشركون وقد رد عليهم القرآن الكريم بكل قوة وحسم فقال الله - تعالى - : **﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾** (1) .

بعد هذا كله هل يبقى على وجه الأرض أحد من العقلاء يمكن أن يصدق ما يأفك به المستشرقون ومن لف لفهم من أن محمداً نقل من كتب أهل الكتاب وهى على هذا النحو الشائن ، بينما القرآن الكريم على هذا المستوى الرفيع من الصدق والدقة والموضوعية ؟

إن من الواضح الجلى بعد هذا العرض أن بضاعة التوراة التى بأيديهم فاسدة وقد سرت منها العدوى إلى الأناجيل وأما ما جاء فى القرآن الكريم فهو واضح الصلاح والصدق والاتساق مع العقل والمنطق .

فكيف يصدق العقلاء قول من يقول : إن محمداً نقل قصص الأنبياء وسرقها من التوراة وبين التوراة والقرآن هذا التناقض الواضح ؟

---

(1) الأعراف : 28 ـ 30 .

كيف يكون هذا الصالح مسروقاً من ذلك الفاسد ؟

وهذا باحث عاقل رفض مزاعم هؤلاء الأفاكين ، ذلكم هو المستشرق الفرنسى «موريس بوكاى » الذى يقول : « إن اليهود والمسيحيين والملحدين فى البلاد الغربية يجمعون على الزعم ـ وذلك دون أدنى دليل ـ بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب أو استكتب القرآن محاكياً التوراة ، ويزعم البعض أن هناك أقوالاً قرآنية فى التاريخ الدينى تفيد أقوال التوراة والإنجيل ، مثل هذا الموقف لا يقل استخفافا عن ذلك الذى يقود إلى القول بأن المسيح أيضاً قد خدع معاصريه باستلهامه للعهد القديم فى أثناء تبشيره فكل إنجيل متى كما رأينا يعتمد على تلك الاستمرارية مع العهد القديم ، أى مفسر هذا الذى تعن له فكرة أن ينزع صفته كرسول لله لذلك السبب ؟

ومع ذلك فهكذا فى الغرب يُحكم على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غالب الأحيان ، يزعمون أنه لم يفعل أكثر من أن نقل التوراة والإنجيل ، وذلك حكم بلا محاكمة لا يضع مطلقاً فى اعتباره أن القرآن والتوراة والإنجيل قد تعطى عن نفس الحدث روايات مختلفة ، ولكنهم يفضلون السكوت على اختلاف الروايات ، ثم يعلنون أنها متماثلة ، وبالتالى يتحاشون عن تدخل المعارف العلمية »[1] .

ويقول « موريس بوكاى » فى موضع آخر : « إن القرآن ـ وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ـ لا يخلو فقط من متناقضات الرواية وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل ، بل هو يظهر أيضاً ـ لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم ـ طابعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة بل أكثر من ذلك ـ وكما أثبتنا ـ يكتشف الدارس أن فى القرآن مقالات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنساناً فى عصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استطاع أن يؤلفها . إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة ، فبينهما فروق شديدة الأهمية تدحض كل ما قيل ادعاء ـ ودون أدنى دليل ـ عن نقل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للتوراة حتى بعد نص القرآن .

(1) دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص 136 .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر ، وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد - صلى الله عليه وسلم - لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله . إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى »[1] .

نماذج من قصص القرآن الكريم .

بعدما ثبت أن قصص القرآن الكريم ليس مماثلاً للقصص المذكور فى التوراة والإنجيل .

وبعدما ظهر بوضوح أن هذا القصص الأخير كان مسفاً وهابطاً وقد نسب إلى أنبياء الله ورسله مالا يليق بمقامهم السامى ومنزلتهم الرفيعة وشرف المهمة الجليلة التى اختارهم الله للقيام بها مما يقطع بأن أيدى البشر قد تلاعبت بتلك النصوص .

وأن كل النقائص والعيوب تنزه عنها قصص القرآن الكريم مما يؤكد أنه من لدن حكيم - خبير وأن محمداً النبى الأمى هو رسول الله وإنما يبلغ ذلك كله عن الله - عز وجل - بعدما ظهر ذلك على سبيل الإجمال نسوق الآن بعض النماذج من قصص القرآن الكريم لنكتشف فيها دلائل نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وليس من غرضنا هنا أن نذكر كل قصة - من القصص التى سنعرضها - بتفاصيلها ولكننا سنشير إلى الهدف الذى نسعى إليه من خلال بعض الأحداث التى ذكرت فى القصة وعنى القرآن الكريم بلفت الأنظار إليها .

الاستدلال بقصة نوح - عليه السلام - .

لقد عنى القرآن الكريم بذكر تفصيلات كثيرة من قصة نوح - عليه السلام - وكيف دعا قومه إلى عبادة الله ونهاهم عن عبادة الأصنام ، وكيف حاول إقناع قومه وما جرى بينه وبينهم من نقاش وكيف واجه عنادهم وجحودهم وكيف نصره الله . . إلخ وقد ذكرت هذه القصة فى عدد من سور القرآن الكريم ، منها سورة

(1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص 285 _ 286 .

هود وقد ختمت الآيات الواردة بشأن هذه القصة فى سورة هود بقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [1] ﴾ .

يقول الإمام ابن كثير : « يقول الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القصة وأشباهها من أخبار الغيوب السابقة نوحيها إليك على وجهها الصحيح كأنك شاهدها ونعلمك بها وحياً منا إليك ولم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم . . »[2] .

ففى إخبار محمد بهذه القصة دليل على نبوته لأن أحداث هذه القصة من الغيوب الماضية التى ليس له بها علم كما أنه ليس لأحد من قومه بها علم ولا سبيل له إلى معرفتها إلا عن طريق الوحى .

وفى هذه الآية دليل آخر على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث جاء فيها الوعد بانتصار رسول الله على أعدائه والسورة نزلت فى مكة ، وقد تحقق هذا الوعد بعد ذلك بسنوات وهو من غيب المستقبل الذى لا يعلمه إلا الله .

وعلى الرغم من وجود قصة نوح فى التوراة فإن ما جاء فى القرآن عن هذه القصة يتميز بالدقة والصدق والموافقة التامة للمعارف العلمية الحديثة مما يقطع بأن ما جاء به القرآن هو الوحى الإلهى الحق ، وأن إخبار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه القصة على هذا النحو الدقيق هو من دلائل نبوته كما تشير إلى ذلك الآية المذكورة ، كما أن التوراة لم تذكر حكاية ابن نوح الذى لم يكن مؤمناً وبقى كافراً حتى هلك مع المغرقين ، وهذا ما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

(1) هود : 49 .

(2) تفسير ابن كثير للآية فى سورة هود بتصرف يسير .

قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (1) .

وفى هذا يقول المستشرق الفرنسى « موريس بوكاى » : « على حين تتحدث التوراة عن طوفان عالمى لعقاب كل البشرية الكافرة يشير القرآن الكريم على العكس إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جيداً » .

وكأن « موريس بوكاى » يشير إلى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (2) .

كما يشير إلى أمثالها من الآيات التى تتحدث عن عقاب كل أمة كذبت رسولها ثم يضيف « موريس بوكاى » قائلاً : « فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول . أما الفرق الجوهرى الثانى : فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها ، والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان ، وقد أنجز نوح هذا الأمر بعناية بالإضافة إلى الأسرة التى قطع منها ذلك الابن الملعون ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة ، إن التوراة فى الواقع تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة » (3) .

الاستدلال بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

لقد عنى القرآن الكريم بقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عناية فائقة ، ومن عرض القرآن لهذه القصة نعرف أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد اختصه بخصائص عظيمة وميّزه بمزايا فريدة فهو أبو الأنبياء لأن جميع الأنبياء الذين جاءوا من بعده هم من نسله فأنبياء بنى إسرائيل هم من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ ، ومن إبراهيم تفرعت شجرة النبوة حتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى ينتهى نسبه الشريف إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

(1) هود : 42ـ43 .
(2) الفرقان : 37 .
(3) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، صـ 244 وما بعدها .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (1) .

وهو إمام الأتقياء حيث يقول ربنا ـ سبحانه ـ : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (2) .

وقد اختاره الله من بين الأنبياء واصطفاه فجعله خليله يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (3) .

وهو الذى شرفه الله إذ كلفه بأن يرفع قواعد البيت الحرام وأن يشاركه فى هذا العمل العظيم ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقام بهذا العمل خير قيام ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (4) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن دعوة التوحيد التى دعا بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ وجاهد فى سبيلها وأحب من أحب من أجلها وخاصم من خاصم من أجلها وتعرض للإيذاء الشديد دفاعاً عنها .

وذكر القرآن الكريم محاورات إبراهيم ومناقشاته وأسلوبه الحكيم فى الدعوة حين دعا أباه بكل رفق وحلم وبكل إحاطة وعلم ، وحين ناقش الملك «النمرود» وأفحمه بحجته القوية الدامغة ، وحين واجه عبدة الكواكب وناقشهم وكشف لهم بطلان عقيدتهم وأثنى الله عليه فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (5) .

وذكر القرآن الكريم ما دار بينه وبين عبدة الأصنام وكيف حطم الأصنام وكيف حاكمه قومه فأقام الحجة عليهم وأفحمهم ولكنهم عاندوا واستكبروا وألقوه فى النار

(1) العنكبوت : 27 .
(2) البقرة : 124 .
(3) النساء : 125 .
(4) البقرة : 127 .
(5) الأنعام : . 83

فحفظه الله ونجاه منهم ، يقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [1] .

ومع أن قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مذكورة فى التوراة إلا أن عرض القرآن لها تبدو فيه معالم الصدق واضحة جلية ، وقد صحح القرآن الأغاليط التى دونت فى التوراة التى بأيدى اليهود ، وهذه بعض الأمثلة :

المثال الأول : لم تذكر التوراة شيئاً عن قيام إبراهيم ـ عليه السلام ـ بدعوة أبيه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، واكتفت بأن ذكرت اسم أبيه فقالت إن اسمه «تارح »[2] أما القرآن الكريم فقد نص على أن اسم أبيه « آزر » حيث يقول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] وسجل القرآن الكيفية التى دعا بها أباه ـ بالتفصيل ـ إلى عبادة الله وذلك فى قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا . . ﴾ [4] .

ونحن لا نطمئن إلى ما جاء فى التوراة لأن ملامح التحريف والتغيير واضحة فى كثير من الفقرات الواردة فيها ، ولقد أكدت الأحاديث الصحيحة أن اسم أبيه هو «آزر » كما جاء فى القرآن الكريم فقد ورد فيما رواه البخارى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **يلقى إبراهيم آباه « آزر » يوم القيامة وعلى وجه «آزر » قترة وغبرة ـ أى سواد وغبار ـ فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ،فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى ألا تخزنى يوم يبعثون وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين** » .

---

(1) الأنبياء : 68ـ 73 .

(2) سفر التكوين 11 : 27 .

(3) الأنعام : 74 .

(4) مريم : 41 ـ 48 .

المثال الثانى : أى أولاده هو الذبيح ؟

كُتَّاب التوراة يؤكدون أن الذبيح الذى أمر الله إبراهيم بذبحه واستجاب لأمر الله وهمَّ بذبحه فعلاً ولكن الله افتداه بذبح عظيم هو « إسحاق » .

ولكن القرآن الكريم يشير بوضوح أقرب إلى التصريح أن الذبيح هو « إسماعيل » وذلك واضح تماماً من سياق عرض القصة كما جاءت فى القرآن الكريم

ونحن نوضح ذلك فيما يلى :

* وصف الله الذبيح بأنه غلام حليم ووصف إسحاق بأنه عليم ، وذلك يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق وإنما هو إسماعيل الذى وصف بأنه حليم .

يقول الله تعالى عند ذكر قصة الذبيح : ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ** ﴾ (1) .

ويقول الله ـ تعالى ـ فى شأن بشارة الملائكة لإبراهيم وزوجه سارة بأن سيكون لهما ولد : ﴿ **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ** ﴾ (2) .

والقرآن والتوراة متفقان على أن هذه البشرى كانت بإسحاق وهو الحق .

* بعدما عرض القرآن قصة الذبح والفداء ذكر أن الله كافأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ على امتثاله لأمر الله بأن بشره بإسحاق نبياً من الصالحين حيث يقول الله ـ تعالى ـ ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾(3) .

ومن ذلك يظهر أن إسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم ، وهذا يتفق مع ما جاء فى التوراة (4) .

(1) الصافات : 99 ـ 111 .
(2) الذاريات : 28 .
(3) الصافات : 107 ـ 112 .
(4) سفر التكوين الفصل 17 والفصل 21 .

* لما بشر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجه سارة بأن سيولد لهما ولد هو «إسحاق» ـ عليه السلام تضمنت البشرى أنه سيكون له نسل ، والقرآن متفق مع التوراة فى هذه الجزئية . إذ جاء فى القرآن قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ . . . فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾[1] .

وجاء فى التوراة هذا النص « (21) فقال الله : بل سارة امرأتك ستلد ابناً وتسميه إسحاق وأقيم عهدى معه مؤبداً لنسله من بعده »[2] .

فكيف يتفق مع هذا الوعد الذى جاء فى البشرى أن يؤمر بذبحه ؟ فلزم أن يكون الذبيح غيره وهو إسماعيل .

* ذكرت التوراة أن الذبيح هو ابن إبراهيم الوحيد ولم يكن إسحاق وحيداً أبداً فقد ولد إسماعيل قبله بأربعة عشر عاماً كما جاء فى التوراة نفسها ، وقد عاشا حتى وفاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ[3] .

وعلى هذا فإنه يصدق على إسماعيل فقط أنه الابن الوحيد ـ أى قبل ولادة إسحاق ـ أما إسحاق فلا يصدق عليه هذا الوصف فى أى يوم .

* التناقض واضح فيما ذكرته التوراة حيث جاء فيها ما يأتى : « (1) وكان بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له : يا إبراهيم ، قال : لبيك (2) قال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق وامض إلى أرض مورية وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أريك »[4] .

وعند التأمل فى هذا النص وما تلاه من فقرات تظهر عدة متناقضات واختلافات عما جاء فى القرآن الكريم ، من ذلك :

(1) أن كلمة إسحاق فى هذا النص مقحمة تدليساً لأنها لا تتفق مع وصفه بالابن الوحيد وجعلت النص متناقضاً .

---

(1) هود : 71 .
(2) سفر التكوين الفصل 17 : 21 .
(3) سفر التكوين الفصل 17 ، 18 .
(4) سفر التكوين الفصل 22 : 1 ـ 2 وما بعدها .

(2) يظهر من النص كله أن الابن حين ذهب مع أبيه لم يكن يعرف ما الذى سيحدث له بينما قصة الذبيح كما وردت فى القرآن الكريم يظهر فيها التصريح بأن الأب أخبر ابنه بأمر الله له بذبحه وأن الابن تلقى هذا الخبر بالرضا والتسليم لأمر الله وقال لأبيه : إفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين وهذا هو اللائق بمقام النبيين العظيمين . والعرض القرآنى أدق وأصدق وأليق بسياق القصة .

(3) القصة كما جاءت فى التوراة تدل على أن الأمر بالذبح كان عن طريق الوحى لكن القصة كما جاءت فى القرآن الكريم تذكر أن الأمر حدث عن طريق رؤيا منامية .

(4) كما يوجد كذلك اختلاف واضح بين رواية التوراة وبين الروايات الإسلامية لهذا الحدث وذلك فى تحديد مكان الذبح ، والمتواتر من عهد إبراهيم وإسماعيل ومن قبل نزول القرآن أن المناسك المتصلة بهذا الحدث كلها فى مكة وما حولها ، على خلاف ما تقوله التوراة من أن الحدث كان فى أرض مورية وأن الماء الذى نبع كان فى بئر سبع .

ونحن بإزاء ذلك كله لا نستطيع أن نطمئن إلى ما جاء فى التوراة ، وإنما نطمئن تماماً إلى ما جاء فى القرآن الكريم لأنه منطقى ومتناسق ولا تناقض فيه وظاهر الصدق لأنه تنزيل من حكيم حميد ، ودلالته على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غاية الوضوح .

يروى أن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ سأل يهودياً ـ كان قد أسلم وحسن إسلامه ـ عن الذبيح الذى أمر إبراهيم بذبحه فقال : هو إسماعيل ، ثم قال والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله له فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم[1] .

المثال الثالث:ماذا حدث مع ضيوف إبراهيم ـ عليه السلام ـ ؟

قصة الضيوف الذين نزلوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ مذكورة فى القرآن الكريم

(1) البداية والنهاية لابن كثير ، جـ 1 ، صـ 160 .

فى عدة مواضع : فى سورة هود وفى سورة الذاريات وغيرهما ، والقصة مذكورة أيضاً فى التوراة .

لكنه يوجد بين رواية القرآن وبين رواية التوراة اختلاف ، كما يظهر التناقض بوضوح فى رواية التوراة ، ويتضح ذلك مما يأتى :

(1) جاء فى القرآن الكريم أن ضيوفاً نزلوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأحسن استقبالهم ، وتبين الآيات القرآنية من البداية أنهم مرسلون من قبل الله ـ عز وجل ـ جاءوا على هيئة الرجال حتى إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ظنهم رجالاً ولذا فقد ذبح لهم عجلاً سميناً وشواه وقرَّبه إليهم ليأكلوا ولكنهم لم يأكلوا فاستنكر أمرهم وتوجس منهم خيفة ، عندئذ طمأنوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعَّرفوه بحقيقتهم ووجهتهم والمهمة التى جاءوا للقيام بها بأمر من الله ، ودار بينه وبينهم حوار ثم انصرفوا لأداء مهمتهم يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [1] .

بهذا الوضوح الكامل حول حقيقة الضيوف جاءت القصة فى القرآن الكريم أما القصة فى التوراة فيلفها الغموض .

(2) فى رواية التوراة لهذا الحدث تناقض واضح ، فهى تذكر أن الضيوف عندما كانوا عند إبراهيم كانوا مجموعة من الرجال [2] لكنهم عند لوط ـ عليه السلام ـ لم يكونوا مجموعة من الرجال وإنما ذكر النص أنهما ملاكان [3] ولا ندرى أين ذهب بقيتهم ؟ لا جواب والغموض والتناقض يسودان الموقف .

---

(1) هود : 69 ـ 76 .

(2) سفر التكوين الفصل الثامن عشر .

(3) سفر التكوين الفصل التاسع عشر .

(3) فى رواية التوراة أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما أعد الطعام وقدمه إليهم أكلوا منه وهذا هو النص « (٧) وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلاً رخصاً طيباً ودفعه إلى الغلام فأسرع فى إصلاحه (٨) ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذى أصلحه وجعل ذلك بين أيديهم وهو واقف أمامهم تحت الشجرة فأكلوا »[1] .

لكن القصة كما جاءت فى القرآن الكريم تذكر أنهم لم يأكلوا واستنكر إبراهيم ـ عليه السلام ـ موقفهم ، فذكروا له السبب وهو أنهم من الملائكة الذين أرسلهم الله لمعاقبة قوم لوط ، وبعدما بشروه مع زوجه بولده إسحاق ومن ورائه يعقوب وبعدما ناقشهم إبراهيم حول قوم لوط انصرفوا لأداء مهمتهم ووصلوا على حالهم إلى قوم لوط وكان من أمرهم مع لوط وقومه ما سجلته الآيات القرآنية فى أعقاب هذا الحدث .

والحق أن رواية القرآن ليس فيها تناقض أو اختلاف وليس فيها ما لا يقبله العقل لأنه من المعلوم بداهة أن الملائكة لا يأكلون وهذا ما أكده القرآن الكريم على عكس ما ذكرته التوراة من أنهم أكلوا .

وعلى هذا فالحق واضح فى رواية القرآن للقصة لأنه الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

الاستدلال بقصة يوسف ـ عليه السلام ـ .

لقد عنى القرآن الكريم بقصة يوسف ـ عليه السلام ـ وأفرد لها سورة كاملة ، كما عنيت التوراة بقصته ـ عليه السلام ـ وأفردت لها أربعة عشر فصلاً من أول السابع والثلاثين حتى نهاية الفصل الخمسين من سفر التكوين .

لكن الذى يتدبر هذه القصة كما جاءت فى القرآن الكريم ثم يتدبر هذه القصة كما جاءت فى التوراة يلمس الفرق واضحا بين العرض القرآنى الدقيق الصادق المعبر عن الحقيقة كما يلمس مواطن العبرة والعظة فى العرض القرآنى ، وفى الوقت نفسه لا يرى شيئاً من ذلك فى عرض القصة كما جاءت فى التوراة التى جاءت على هيئة السرد التاريخى المجرد ، ودون التزام بالدقة أو إبراز مواطن العبرة لا من قريب ولا من بعيد .

(1) سفر التكوين الفصل الثامن عشر : 7 ـ 8 .

ولقد لفت القرآن الكريم أنظار القارئين والدارسين إلى هذا الفرق الجوهرى وكشف عن تلك الميزة التى يتميز بها القصص القرآنى فقال الله فى أول سورة يوسف : ﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (1)

فهو أحسن القصص لمزاياه العديدة التى على رأسها الصدق ، ويؤكد أن الله يذكره لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء ولم يكن يعلم عنه شيئاً من قبل ، ثم يشرع القرآن الكريم فى ذكر القصة من بدايتها بعد هذا التمهيد المفيد ، ثم يختم الله السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) .

وبالمقارنة بين عرض القرآن للقصة وبين عرض التوراة لها نرى فروقاً واضحة بين العرضين ، كما نجد أن القرآن تعرض لذكر واقعات لها أهميتها فى القصة لم يرد لها ذكر فى التوراة الأمر الذى يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر فى هذه القصة ـ كما فى غيرها ـ بما علمه الله مما لم يكن له ولا لغيره علم به قبل ذلك ، وصدق الله العظيم إذ يقول فى نهاية أحداث القصة : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (3) .

وسنعرض فيما يلى بعض هذه الفروق .

(1) فى التوراة أن يوسف ـ عليه السلام ـ رأى رؤيتين .

الأولى : « أنه هو وإخوته فى الصحراء يحزمون حزما وأن حزمته وقفت وانتصبت وأن حزم إخوته أحاطت بها وسجدت لها ، وأنه ذكر هذه الرؤيا لإخوته وفسروها له بأنه يملكهم ويتسلط عليهم فازدادوا حنقاً عليه .

الثانية : أنه رأى كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً سجدوا له وأنه عرض هذه الرؤيا على أبيه وإخوته فزجره أبوه وقال له : ما هذا الحلم الذى رأيته أترانا نجيىء أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض ، فحسده إخوته » (4) .

(1) يوسف : 1 ـ 3 . (2) يوسف : 111 .
(3) يوسف : 102 . (4) سفر التكوين الفصل السابع والثلاثون .

وهذه العبارة الأخيرة تفيد أن أباه يسخر من هذه الرؤيا ويستنكر تحققها .

وعلى كل فإنه من الواضح أن بين الرؤيتين فرقاً ، فهل ستتحقق الأولى أم الثانية أم أنهما لن يتحققا ؟ الله أعلم ولكن الواضح أن التوراة لم تذكر شيئاً عن تحقق أى من الرؤيتين .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم للكشف عن الحقيقة بخصوص هذه المسألة فسنجد أن القرآن لم يذكر إلا رؤيا واحدة هى أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له وأنه ذكر هذه الرؤيا لأبيه وحده وحذره أبوه من إخبار إخوته بها وعبرها له بأن الله سيجتبيه ويتم نعمته عليه كما فعل مع أجداده من قبل ، ومن هذا نعلم أن أباه بشره بالخير ولم يسخر من الرؤيا كما يفهم من عبارة التوراة يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [1] .

وليس من المعقول أن يكون يوسف قد أخبر إخوته على الرغم من تحذير أبيه له ولم يسكت القرآن بخصوص الرؤيا عند هذا الحد ولم يتركنا فى حيرة وإنما بيَّن أن هذه الرؤيا قد تحققت على الرغم مما تعرض له يوسف من المحن والابتلاءات فيقول الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2]

وبعدما دخل يوسف السجن وصار محل ثقة الجميع داخل السجن راح يعبر لكل من السجينين اللذين كانا معه روياه التى رآها ومزج ذلك بالدعوة فذكر نعمة الله عليه وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [3] .

(1) يوسف : 4 ـ 6 .　(2) يوسف : 22 .　(3) يوسف : 37 ـ 39 .

ويقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (1)

من هذا العرض القرآنى المتناسق يظهر أن الرؤيا قد تحققت بكاملها وهو الحق .

(2) تذكر التوراة أن إخوة يوسف بعد أن ألقوه فى البئر الذى لا ماء فيه عادوا وأخرجوه من البئر وباعوه لإحدى القوافل بعشرين من الفضة وأنه فى ذلك الوقت كان ابن سبع عشرة سنة (2) .

لكن القرآن الكريم لم يذكر سنه وقت وقوع هذه الحادثة ، ولم يذكر أن إخوته أخرجوه من الجُب بعد أن ألقوه فيه وإنما ذكر أن قافلة هى التى التقطته من الجب وفرحوا بالتقاطه وباعوه فى أرض مصر بثمن بخس دراهم معدودة وذكر أن الذى اشتراه هو عزيز مصر الذى أوصى امرأته به خيراً .

(3) حديث التوراة عما جرى بين امرأة العزيز وبين يوسف ـ عليه السلام ـ فيه أن امرأة العزيز دعته إلى نفسها بصريح العبارة بأسلوب يخدش حياء قُراء القصة ولما أبى يوسف تلبية رغبتها اتهمته زوراً ودخل السجن بناء على ذلك ، يعنى مع اعتقاد زوجها أنها صادقة فى اتهامها ليوسف (3) .

لكن حديث القرآن الكريم عن نفس الواقعة جاء بأسلوب غاية فى الرقى الأدبى والخلقى اللائق بالكتب المقدسة حيث يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (4) .

ولم يترك القرآن الكريم هذا الحديث الخطير يمر دون أن يذكر كيف تم الفحص عن حقيقة هذا الاتهام الكاذب الذى لفقته امرأة العزيز ليوسف ـ عليه السلام ـ فبيّن

---

(1) يوسف : 100 .
(2) سفر التكوين الفصل السابع والثلاثون .
(3) سفر التكوين فصل 29 .
(4) يوسف : 23 .

القرآن الكريم أن يوسف ـ عليه السلام ـ دافع عن نفسه واتهمها بالحق أنها هى التى راودته عن نفسه ، وبالإضافة إلى هذا فقد ذكر القرآن الكريم أن شاهداً من أهلها هى كان موجوداً فى تلك الساعة ، نظر فى القضية بعقل وروية وتدبر وظهرت له الحقيقة ببينة قاطعة يتأكد بها أن امرأة العزيز كاذبة فى اتهامها ليوسف ـ عليه السلام ـ وأنه برىء وصادق فى اتهامه لها .

وهذا جزء هام فى القصة لم يرد له ذكر فى التوراة مع أن يوسف ـ عليه السلام ـ من أنبياء بنى إسرائيل .

يقول الله ـ تعالى ـ مبيناً ما رد به يوسف على اتهامها له وكيف ظهرت الحقيقة قبل أن يدخلوه السجن ظلماً : ﴿ **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾[1] .

ومن هذه الآيات يظهر أن براءة يوسف ـ عليه السلام ـ صارت معروفة لزوجها ولهذا الشاهد ولبعض آخر من النسوة كما جاء فى الآيات القرآنية التى تلى هذه الآيات المذكورة وذلك كله يدل على أنهم أدخلوه السجن وهم متأكدون من براءته حتى يقضوا على الإشاعات ويقنعوا الجماهير أن يوسف مذنب فكيف أهملت التوراة ذلك كله على الرغم من أهميته القصوى فى القصة ؟ .

(4) ذكرت التوراة أن الملك لما رأى الرؤيا وعبرها له يوسف أمر بإخراجه من السجن ثم كلفه بالعمل معه ، ولم تذكر التوراة هنا أمراً فى غاية الأهمية وهو أن الملك لما أمر بإخراج يوسف من السجن وجاء إليه رسول الملك رفض يوسف عليه السلام ـ أن يخرج من السجن إلا بعد التحقيق فى القضية كى تظهر براءته على رؤوس الأشهاد ، وقد تم ذلك بالفعل فوافق على الخروج وطلب إليه الملك أن يختار العمل الذى يرغب فيه وتم له ما أراد ورفع الله شأنه ومكن له فى الأرض وتولى خزائن الأرض ، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ**

(1) يوسف : 26 ـ 29 .

قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ (1) .

ومن الواضح أيضاً أن التوراة لم تذكر شيئاً عن أمر النسوة مع أنهن شهود لهن أهمية فى القضية بل وهن طرف فيها وقد شهدن على أنفسهن ولصالح يوسف ـ عليه السلام ـ .

(5) لم تذكر التوراة إحدى القضايا الهامة التى ذكرها القرآن الكريم ، وهى أن يعقوب ـ عليه السلام ـ ابيضت عيناه من الحزن وأنه عاد إليه بصره حين جاءه البشير يحمل إليه قميص يوسف وألقاه على وجهه يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (2) .

ثم يحكى القرآن الكريم مقالة يوسف ـ عليه السلام ـ فيقول : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (3) .

ثم يقول الله ـ سبحانه ـ ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

هذا الجانب من القصة لا يجوز إهماله لكن التوراة التى بأيديهم لا تعرف عنه شيئاً ، والقرآن الكريم هو الذى عنى به وذكره ، وأهمية هذا الجانب وقيمته لا تخفى وبهذا يظهر الفرق بين كلام الله الحق الموحى به إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين غيره من الكلام المنسوب إلى الله ـ عز وجل ـ فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يقول إن محمداً أخذ من التوراة ونقل عنها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(1) يوسف : 50 ـ 52 .
(2) يوسف : 84 .
(3) يوسف : 93 .
(4) يوسف : 96 .

الاستدلال بقصة موسى عليه السلام

لقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بقصة موسى عليه السلام ، وتتبع مسيرة حياته من وقت مولده وحتى وفاته ، مروراً بنشأته فى بيت فرعون وهجرته من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه وإقامته هناك ، وكيف كان اختيار الله له ليكون كليمه ورسوله وكيف قبل الله طلبه بأن يشد عضده بأخيه هارون ، كما بيَّن القرآن الكريم طبيعة رسالته ـ عليه السلام ـ وكيف توجه مع أخيه بأمر الله لمواجهة فرعون وما جرى فى ذلك بالتفصيل ، ثم ما كان من أمر خروجه من مصر مع بنى إسرائيل وملاحقة فرعون وجنوده لهم ، وكيف انشق البحر لموسى ومن معه ، وكيف كانت نجاتهم ، وكيف أهلك الله فرعون وجنوده ، وغير ذلك من الأحداث ذات الأهمية والصلة بمواطن العبرة والعظة على طريقة القرآن الكريم فى عرضه لقصص الأولين .

وفى خلال هذا العرض القرآنى الصادق والمتناسق ينبه القرآن إلى أن ما يعرضه من الواقعات والأحداث هو الحق ، يقول الله ـ تعالى ـ فى بداية القصة عند التمهيد لها : ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

ثم ينبه القرآن المرة بعد المرة إلى أن ما يعرضه فى هذه القصة ـ كما فى غيرها ـ هو من أنباء الغيب التى لم يكن محمد يعرف عنها شيئاً وإنما كانت معرفته لها عن طريق الوحى المنزل عليه من عند الله ، الأمر الذى يثبت أنه رسول الله حقاً وصدقاً .

فيقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (2) .

يقول الإمام ابن كثير : « يقول ـ تعالى ـ منبهاً على برهان نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهداً وراء لما تقدم ،

---

(1) القصص : 1 ـ 3 .   (2) القصص : 44 ـ 46 .

وهو رجل أمى لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال ـ تعالى ـ : ﴿ **وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ (1) ، أى : وما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ، ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (2) ، وكما قال فى آخر السورة : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ** ﴾ (3) ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ (4) ، وقال فى سورة طه : ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ** . . ﴾ (5) ، وقال هاهنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله له وتكليمه له : ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ** . . ﴾ (6) .

يعنى : ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى وما كنت من الشاهدين لذلك ، ولكن الله سبحانه أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين ، وما كنت مقيماً فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ، ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً ، ثم كرر الله التأكيد على هذه المسألة بصيغة أخرى فقال : ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** . . ﴾ (7) أى : إذ نادينا موسى ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَى** . . ﴾ (8) ، وكما قال : ﴿ . . **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ (9) ، وكما قال : ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** ﴾ (10) .

---

(1) آل عمران : 44 .
(2) هود : 49 .
(3) هود : 100 .
(4) يوسف : 102 .
(5) طه : 99 .
(6) القصص : 44 ـ46 .
(7) القصص : 46 .
(8) الشعراء : 10 .
(9) النازعات : 16 .
(10) مريم : . 52 .

أي ما كنت شاهداً لشيء من ذلك ولكن الله ـ تعالى ـ أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم لعلهم يهتدون بما جئتهم به من عند الله ـ عز وجل ـ »[1] .

وكما وردت قصة موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم فإنها قد وردت أيضاً في التوراة في عدد من الأسفار ، ومع هذا فإن من يتدبر هذه القصة كما جاءت في القرآن ثم يتدبر نفس القصة كما جاءت في التوراة ويفحص النصوص بتجرد سيكتشف الصدق والتناسق والانسجام والدقة في غاية الوضوح والجلاء وذلك في عرض القصة كما جاءت في القرآن الكريم ، ويكتشف التناقض والاختلاف والسكوت التام عن أمور هامة تعد من صميم القصة ويجد حديثاً عن أمور لا يمكن تصديقها عقلاً وذلك في عرض القصة كما دونت في التوراة مما يؤكد الفرق الشاسع بين ما جاء به الوحي الإلهي المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين غيره ، ونحن نتعرض لتفصيل شيء من ذلك فيما يأتي :

أولاً : في سفر الخروج جاء هذا النص منسوبا إلى الله ـ عز وجل ـ أنه قاله لموسى ـ عليه السلام ـ حين كلمه أول مرة « (21) وأهب الشعب حظوة في عيون المصريين فإذا انصرفتم فلا تنصرفون فارغين (22) بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب وثياباً يجعلونها على بنيكم وبناتكم وتسلبون المصريين »[2] .

ولقد تم ـ فعلاً ـ تنفيذ هذا الأمر المنسوب إلى الله ـ عز وجل ـ عندما خرج بنو إسرائيل من مصر لأن موسى ـ عليه السلام ـ ذكرهم بهذا الأمر كما تقول التوراة[3]

فهل لعاقل أن يصدق أن كتاباً منزلاً من عند الله يحرض الناس على التحايل والسرقة بأمر من الله ؟ وأن نبي الله يلتزم بهذا الأمر العجيب وينفذه هو وجماعة المؤمنين به ؟ فماذا بقي للمجرمين والضالين ؟ .

(1) تفسير الآيات من ابن كثير بتصرف يسير .
(2) سفر الخروج الفصل الثالث : 21 ـ 22 .
(3) سفر الخروج الفصل الثاني عشر : 35 ـ 36 .

إن هذه النصوص وأمثالها تذكرنا بقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (1) .

ثانياً : جاء فى سفر الخروج هذا النص : « (1) فقال الرب لموسى : انظر قد جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك نبيك (2) أنت تتكلم بجميع ما آمرك به ، وهارون أخوك يخاطب فرعون أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه » (2) .

وبناء على هذا قام موسى بتسليم العصا لهارون وذهب وألقاها بين يدى فرعون وصارت ثعباناً كما جاء فى النص الآتى الذى يعنى أن هارون صار هو النبى فعلاً ما دام موسى قد صار إلهاً يقول النص « (8) وكلم الرب موسى وهارون قائلاً : (9) إذا كلمكما فرعون وقال : أعطيانى آية . فقل لهارون : خذ عصاك وألقها بين يدى فرعون فتصير ثعباناً (10) فدخل موسى وهارون على فرعون وصنعا كما أمر الرب ألقى هارون عصاه بين يدى فرعون وعبيده فصارت ثعباناً » (3) .

ومن الواضح أن فى هذين النصين مخالفات صارخة لنصوص كثيرة فى التوراة إذ كيف يجعل الله موسى شريكاً له فى الألوهية وهذا مناف لعقيدة التوحيد التى دعا إليها جميع الأنبياء وصرحت بها التوراة فى مواضع عديدة وكيف يُقبل بعد أن صار إلهاً ـ حسب دلالة هذا النص ـ أن يرسل رسولاً من قبله كما يفعل الله ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكيف يتفق هذا الكلام مع كلام أعجب منه ومناقض له جاء فى سفر العدد ، وهذا نصه : « (12) فقال الرب لموسى وهارون : بما أنكما لم تؤمنا بى ولم تقدسانى على عيون بنى إسرائيل لذلك لا تدخلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التى أعطيتها لهم » (4) .

فكيف يجعل الله موسى إلهاً ويجعل أخاه نبياً ثم يصفهما بعدم الإيمان ؟ وكل ذلك فى كتاب يقال إنه مقدس ! !

---

(1) سورة البقرة : 79 .
(2) سفر الخروج الفصل السابع : 1 ـ 2 .
(3) سفر الخروج الفصل السابع : 8 ـ 10 .
(4) سفر العدد الفصل العشرون : 12 .

ولقد تنزه القرآن الكريم عن هذا اللغو والتناقض عند حديثه عن قصة موسى وهارون فهما ـ فى العرض القرآنى ـ نبيان كريمان مطيعان لأمر الله ـ عز وجل ـ ، وقد أيدهما الله بالمعجزات ، وعندما ذهبا إلى فرعون قالا له : إنا رسولا ربك .

ولقد صار هارون نبياً بناء على طلب موسى من ربه . قال الله ـ تعالى ـ حاكياً ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ (1) .

وقد بقيت العصا مع موسى ـ عليه السلام ـ فى كل المواقف ولم يسلمها إلى هارون وذلك واضح تماماً فى الآيات القرآنية .

ثالثاً : فى سفر الخروج تناقض واضح فى فصل واحد بين النصين الآتيين :

النص الأول : فيه تهديد من الله لفرعون على لسان موسى بأنه إن لم يطلق بنى إسرائيل فإن الله سيهلك جميع مواشى وبهائم المصريين ، وقد أبى فرعون ونفذ الله وعيده وهلكت جميع المواشى التى للمصريين (2) .

النص الثانى : جاء بعد النص الأول وفيه تهديد من الله لفرعون على لسان موسى بأنه إن لم يطلق بنى إسرائيل فإن موسى سيقذف بحفنة من رماد التنور فتصير غباراً يملأ جميع أرض مصر فيصيب الناس والبهائم بقروح وبثور متقيحة ، وقد أبى فرعون ونفذ موسى وعيد الله لهم ، وحدثت الإصابات التى أصيب بها الناس والبهائم حتى السحرة أنفسهم أصيبوا بها » (3) .

فكيف أصيبت البهائم بالقروح والبثور المتقيحة كما يقول النص الثانى مع أنها كانت قد هلكت عن آخرها قبل ذلك كما يقول النص الأول ؟

إن هذا أمر يثير الشك والريبة فى هذه النصوص ويفقدها الثقة .

(1) القصص : 33 ـ 35 .
(2) سفر الخروج الفصل التاسع : 1ـ7 .
(3) سفر الخروج الفصل التاسع : 8ـ13 .

رابعاً : جاء فى سفر الخروج هذا النص : « (3) فدخل موسى وهارون على فرعون وقالا له : كذا قال الرب إله العبرانيين ، إلى متى تأبى أن تخضع لى ، أطلق شعبى ليعبدونى »(1) .

ومن الملاحظ ـ فى مواضع كثيرة من التوراة ـ أن يوصف الله بأنه إله العبرانيين أو إله إسرائيل ، ومعنى هذا أن الآخرين لهم آلهة أخرى أو ليس لهم إله على الإطلاق أو أنهم لا يستحقون أن يكونوا عبيداً لله لأنه رب العبرانيين وحدهم وهذا منطق غريب وتفكير عنصرى مرفوض ديناً وعقلاً والله برىء منه ورسل الله جميعاً برءاء منه ، والقرآن الكريم يقرر أن موسى وهارون حينما ذهبا إلى فرعون ذكرا أنهما رسولان من عند رب العالمين رب السموات والأرض وما بينهما .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾(2) .

ولما فتح فرعون النقاش حول هذه الدعوة ذكر القرآن الكريم ما دار فى هذا النقاش بين فرعون وبين موسى ـ عليه السلام ـ ولم يخرج النقاش عن هذا الإطار يقول الله تعالى : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(3) .

وعلى أساس ما جاء فى القرآن الكريم فإن الإله الذى يحمل موسى وهارون رسالته هو الله رب العالمين ، وهو الله الواحد الأحد الذى آمن به جميع الأنبياء والمرسلين ومن آمن بهم واهتدى بهداهم ، ولكن المتعصبين العنصريين الذين دونوا التوراة جعلوه إلهاً لبنى إسرائيل وحدهم من دون الناس وهذه فرية عظيمة على الله ـ تبارك وتعالى ـ .

خامساً : جاء فى سفر الخروج أن الرب طلب من بنى إسرائيل فى عيد الفصح

---

(1) سفر الخروج الفصل العاشر : 3 .
(2) الشعراء : 16ـ17 .
(3) الشعراء : 23ـ 28 .

أن يضعوا علامة من الدم على العتبة العليا وقائمتى أبواب بيوتهم حتى إذا جاء الرب ليلاً ليهلك كل بكر للمصريين من الناس والدواب يستطيع أن يميز بين بيوت بنى إسرائيل وبين بيوت المصريين حتى لا يصيب الهلاك بنى إسرائيل كذلك وقد تم هذا بالفعل [1] .

أى جهل هذا وأى قصور فى معرفة جلال الله وكماله ؟ هل الله ـ سبحانه ـ فى حاجة إلى هذه العلامة ليميز بها بين من يريد أن يهلكهم وبين من يريد نجاتهم ؟

إن القرآن الكريم ـ كلام الله الحق ـ يعلمنا أن الله لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [2] .

وفى محاورة بين موسى وهارون من جانب وبين فرعون من جانب آخر طرح فرعون عليهما سؤالين أجابا عليهما بما سجله القرآن الكريم فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى** ﴾ [3] .

سادساً : جاء فى سفر الخروج هذا النص : « (11) لأن الرب فى ستة أيام خلق السموات والأرض والبحر وجميع ما فيها ، وفى اليوم السابع استراح ، ولذلك بارك الرب السبت وقدسه » [4] .

فهل خطر ببال كاتب التوراة أن هذا الوصف لا يليق بجلال الله ؟ لأن الذى يستريح لابد أن يكون قد تعب ، والتعب نقص وعجز ، والله ـ سبحانه ـ منزه عن كل نقص .

وقد نشأ التصور الأخرق لدى كاتب التوراة بسبب ظنه أن الأيام لابد أن تكون

(1) سفر الخروج الفصل الثانى عشر : 1 ـ 13 .
(2) الأنعام : 59 .
(3) طه : 49 ـ 52 .
(4) سفر الخروج الفصل العشرون : 11 .

سبعة ، ولم يفهم أن الأيام السبعة لم تعرف إلا بعد خلق السموات والأرض والشمس والقمر وبعدما عرف النهار والليل نتيجة حركة الأرض حول الشمس .

ولهذا فقد جاءت عبارة القرآن الكريم حول هذه المسألة العقدية فى غاية الدقة ، وتضمنت الرد على هذا الافتراء والتحريف فى حق الله - سبحانه - ، يقول الله - تعالى - ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [1] .

أى : وما أصابنا من تعب ولا نصب ، وأما الأيام الستة المذكورة فهى أيام يعلمها الله وليست هى أيامنا هذه قطعاً .

سابعاً : جاء فى سفر الخروج أن موسى - عليه السلام - لما ذهب لمناجاة ربه وأبطأ فى النزول صنع هارون لبنى إسرائيل عجلاً من ذهب وبنى لهم مذبحاً وأنهم عبدوا هذا العجل وقدموا له القرابين ، وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل ، فأعلم الله موسى بما جرى فعاد إليهم وأحرق العجل وذراه » [2] .

وجاء فى نفس السفر والفصل أن الله غضب من فعلهم هذا وقرر عقوبتهم ولكن موسى أثناه عن عزمه وجعله يتراجع عن قراره وهذا هو النص : « (9) وقال الرب لموسى : قد رأيت هؤلاء الشعب فإذا هم شعب قساة الرقاب (10) والآن دعنى يضطرم غضبى عليهم فأفنيهم وأجعلك أنت أمة عظيمة (11) فتضرع موسى إلى الرب إلهه وقال : يارب لمَ يضطرم غضبك على شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر بقوة عظيمة وبيد شديدة ؟ (12) ولمَ يقول المصريون إنه أخرجهم من هاهنا بكيد ليقتلهم فيما بين الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض ؟ إرجع عن شدة غضبك وعُد عن مساءة شعبك (13) واذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين أقسمت لهم بذاتك وقلت لهم : إنى أكبر نسلكم كنجوم السماء ، وجميع الأرض التى تكلمت عنها سأعطيها لنسلكم فيرثونها أبد الدهر (14) فعدَّى الرب عن المساءة التى قال إنه يحلها بشعبه » [3] .

والمتأمل فى هذين النصين يجد فيهما عجائب وغرائب كثيرة لا يمكن قبولها

---

(1) ق : 38 .

(2) سفر الخروج الفصل الثانى والثلاثون : 1 وما بعدها .

(3) نفس السفر والفصل السابق : 9 - 14 .

ديناً ولا عقلاً ، وقد تنزه القرآن الكريم عنها كلها ، وهذه بعض هذه العجائب :

(1) ليس من المقبول ديناً ولا عقلاً أن يقوم نبى كريم هو هارون ـ عليه السلام ـ بصناعة عجل من ذهب لكى يعبده قومه بنى إسرائيل لأن هذا الفعل يتعارض تماماً مع نبوته بل ويسلكه فى عداد الكافرين .

وقد خلا القرآن الكريم من هذا الإفك حين ذكر أن الذى صنع العجل هو السامرى ، وأن هارون ـ عليه السلام ـ قاوم هذا العمل وحاول منعه قدر طاقته ولكنه لم يستطع ، ولما اشتدت معارضة هارون ـ عليه السلام ـ على عبادتهم للعجل كادوا أن يقتلوه ، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾ [1] .

ثم يقول الله ـ تعالى ـ على لسان هارون ـ عليه السلام ـ وهو يخاطب موسى ـ عليه السلام ـ بعد عودته : ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [2] .

(2) ليس من المقبول ديناً أو عقلاً أن يتخذ الله قراراً متسرعاً فى وقت غضبه ثم يراجعه عبد من عباده فى هذا القرار مبيناً له خطأه فى قراره هذا فيتراجع الله ـ سبحانه ـ عن قراره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(3) هل من المقبول أن ينسى الله وعده لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويتخذ قراراً مخالفاً لهذا الوعد فى وقت غضبه ثم لا يتراجع عن قراره هذا إلا بعدما ذكّره موسى بهذا الوعد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(4) لو افترضنا أننا قبلنا هذا النص وصدقناه على الرغم من هذه المحاذير ،

(1) طه : 87 ـ 91 . (2) الأعراف : 150 .

فهل يصلح هذا النص ليكون حجة لبني إسرائيل في زعمهم أن أرض فلسطين أرض وعدهم الله بها ؟

أقول : إن هذا النص لا يصلح أن يكون حجة لهم لأنه لا ينطبق عليهم فهم لم يكونوا كثيرين كعدد نجوم السماء في أي فترة من فترات التاريخ .

ولكن إذا قيل إن النص يشمل جميع ذرية إبراهيم فالتشبيه يصدق عليهم ولكن ذلك يعني كذلك أن الأرض المقدسة لن تكون من حق بني إسرائيل خاصة وبذلك يكون زعمهم باطلاً وتكون هذه الأرض لكل ذرية إبراهيم وبشرط اتباع ملته .

ثامناً : جاء في سفر الخروج هذا النص : « (26) فقال الرب لموسى : مد يدك على البحر فيرتد الماء على المصريين على مراكبهم وفرسانهم (27) فمد موسى يده على البحر فارتد البحر عند انبثاق الصبح إلى ما كان عليه والمصريون هاربون تلقاءه، فغرّق الله المصريين في وسط البحر (28) ورجعت المياه فغطت مراكب وفرسان جميع جيش فرعون الداخلين وراءهم في البحر ولم يبق منهم أحداً »[1] .

هذه الفقرات وما قبلها وما بعدها تتحدث عن خروج موسى ـ عليه السلام ـ ومن معه من مصر وانشقاق البحر لهم ونجاتهم وغرق فرعون ومن معه .

وقد تحدث القرآن عن هذا كله في أكثر من موضع وبين عرض القرآن لهذا الحدث وبين عرض التوراة له بعض اتفاق وبعض اختلاف ، وهذه بعض آيات القرآن الكريم :

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**[2] **﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ**[3] **﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ** ﴾[4] .

---

(1) سفر الخروج الفصل الرابع عشر : 26ـ28 .

(2) أي كالجبل الضخم .

(3) أي قربنا فرعون وجنوده من البحر كي نغرقهم .

(4) الشعراء : 60 ـ 66 .

ويقول الله ـ تعالى ـ عن فرعون وقومه : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ (1) .

ويقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (2) .

وحتى لا نطيل فى بيان أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف ـ وهى كثيرة ـ بين رواية التوراة لهذا الحدث وبين رواية القرآن الكريم فإننا سنذكر فيما يلى بعض الملاحظات

(1) على الرغم من اتفاق التوراة والقرآن على نجاة بنى إسرائيل وهلاك جيش فرعون عن آخره حتى لم يبق منهم أحد فإن القرآن انفرد بأمور على رأسها أنه نقل إلينا ما حدث من فرعون عند الغرق حيث أعلن أنه مؤمن بالله وأنه من المسلمين ، ولكن الله لم يقبل منه هذا الإيمان بعد أن عاين الموت وأدركه الغرق ، لأن سنة الله قضت بذلك عليه وعلى جميع الخلق ، وفى هذا يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (3) .

وتلك قضية هامة لها قيمتها فى القصة عنى بها القرآن الكريم وأهملتها التوراة على الرغم من اهتمامها بكثير من التفاصيل التى ليست لها هذه الأهمية .

(2) مما عنى به القرآن الكريم وسجله كذلك ، تلك الحقيقة الهامة التى جاءت فى الآيات القرآنية المذكورة وهى أن الله ـ تبارك وتعالى ـ بعدما أغرق فرعون نجى بدنه ليكون عبرة وعظة لمن يأتى بعده من الطغاة والجبابرة .

---

(1) الزخرف : 54 ـ 56 .
(2) يونس : 90ـ 92 .
(3) غافر : 84 ـ 85 .

وتلك الحقيقة الخطيرة لم تكن معروفة لأحد قبل أن يذكرها القرآن الكريم وحتى بعدما ذكرها القرآن الكريم فإن الناس لم يكتشفوا أمرها ولم تظهر للعيان إلا بعد ذلك بقرون .

فمن أين عرف محمد هذا الغيب المكنون فى أعماق الماضى والذى لم تظهر حقيقته إلا فى المستقبل البعيد بعد حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ إنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق الوحى ، ويعد الإخباربه علماً من أعلام نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ودليلاً دافعاً يدل على صدقه فيما يبلغ عن ربه - عز وجل - .

يقول المستشرق الفرنسى « موريس بوكاى » فى بيان وجود التباين بين روايتى التوراة والقرآن حول خروج موسى - عليه السلام - من مصر وغرق فرعون فى البحر فذكر أنه يتمثل فى أن « التوراة لا تحتوى على أية إشارة خاصة بالعثور على جثة فرعون بعد موته ، بينما النص القرآنى يقول ببساطة وبشكل واضح تماماً أن جسد فرعون قد أنقذ ، وتلك معطية رئيسية » .

ثم يقول : « وفى العصر الذى وصل فيه القرآن للناس عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت جثث كل الفراعنة الذين شك الناس فى العصر الحديث - صواباً أو خطأً - أن لهم علاقة بالخروج كانت مدفونة بمقابر وادى الملوك بطيبة « مصر » .

فى عصر محمد - صلى الله عليه وسلم - كان كل شىء مجهولاً عن هذا الأمر ، ولم تكتشف هذه الجثث إلا فى نهاية القرن التاسع عشر .

وكما يقول القرآن فقد أنقذ بدن هذا الفرعون ، وهو الآن فى قاعة الموميات فى المتحف المصرى بالقاهرة ، ويستطيع الزوار أن يروه »[1] .

وبهذا ظهر بوضوح أن رواية القرآن الكريم لهذه القصة وحلقاتها الهامة تعد علماً من أعلام النبوة وبخاصة أن التوراة أهملت بعض الوقائع على الرغم من أهميتها ، وبعضها ظل مجهولاً إلى عهد قريب حتى بعد نزول القرآن الكريم ، فسبحان من أنزله بالحق ، وصلى الله وسلم على من أنزل عليه .

(1) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، صـ 254 وما بعدها بتصرف .

الإستدلال بقصة عيسى ـ عليه السلام ـ .

إن قصة عيسى ـ عليه السلام ـ كما وردت فى القرآن الكريم ـ تعد من أقوى الدلائل على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وذلك لأن شخصية عيسى ـ عليه السلام ـ شخصية ثار حولها جدل عظيم ، واختلف الناس حولها اختلافاً شديداً وافترق أهل الكتاب حول حقيقته إلى فرق ضاعت كلها وهلكت بين الإفراط والتفريط ، وكان السبب فى ذلك أنهم جميعاً لم يفقهوا حكمة ولادته ـ عليه السلام ـ من أم بدون أب .

ولأن اليهود الذين بعث إليهم ضاقوا ذرعاً بدعوته ورفضوا الاعتراف برسالته وكان لابد أن يبرروا موقفهم منه فقد اتهموا أمه الطاهرة البتول بارتكاب الفاحشة ، وزعموا أنه ـ عليه السلام ـ ثمرة هذه الفاحشة وأنه مرتد عن دين اليهودية وتعاملوا معه على هذا الأساس حتى دبروا لقتله وهذا الموقف مدون ومعروف عند أهل الكتاب .

كان هذا هو موقف اليهود من عيسى ـ عليه السلام ـ ، أما النصارى ـ لعدم فهمهم لحكمة ولادته من أم بدون أب ـ فقد بنوا على ذلك أبنية واهية متداعية وقالوا بألوهية المسيح ، ثم تشعب الخلاف بينهم بعد أن ألهوه ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله لأنه خلق من روحه ومنهم من يزعم أنه الله بذاته تجسد فى صورة يسوع ونزل إلى الأرض ليخلص الناس من الخطيئة ، ومنهم من يعتقد عقيدة التثليث وزعم أن الله ثالث ثلاثة ومنهم من يزعم أن عيسى وأمه إلهين ، وكل هذه الفرق تحدث عنها القرآن الكريم .

وقد ازداد تشعب الخلاف ونحوه حول المسيح عند النصارى وتعددت فرقهم تبعاً لذلك .

ولما كان الخلاف حول شخصية المسيح ـ عليه السلام ـ قد وصل إلى هذه الدرجة ولما لم يكن لدى الباحثين المحايدين مرجع موثوق به يدلهم على الحقيقة فقد ذهب البعض إلى القول بأن شخصية المسيح شخصية خرافية أسطورية ليس لها وجود .

وحتى فى العصر الحديث ما زال الجدل حول المسيح وما نسب إليه من أقوال مستمراً بين النصارى أنفسهم حتى الآن .

فقد نشرت مجلة « يو . إس . نيوز ـ الأمريكية » تحت عنوان « بحث خطير عن المعلم التاريخى عيسى » ذكرت فيه : « أن مجمعا علمياً يسمى « مجمع عيسى » يضم نحو خمسين عالماً من مختلف الجامعات ومدارس اللاهوت من أنحاء العالم قد اجتمعوا وشرعوا فى دراسة بحث معاصر لشخصية عيسى التاريخية ، وأنهم ـ استناداً إلى تحليلات علمية تاريخية ـ يقولون : إن أكثر من 80% من الأقوال المنسوبة إلى عيسى فى الأناجيل موضوعة وغير صحيحة ، وقد قام هؤلاء العلماء بطبع نشرة موجزة من إنجيل « مارك » طبعة الحرف الأحمر ، وهم يحاولون إثبات أن (17) قولاً من أصل (11) قولاً منسوبة إلى عيسى هى فى الحقيقة الصحيحة وحدها .

وفى إحدى هذه الطبعات قام العلماء باستعمال الحبر الأحمر فى طبع الكلمات الموثوق بصدورها عن عيسى ، أما الأقوال التى يعتقد بأنها ربما صدرت عن عيسى فقد طبعت باللون الزهرى ، والأقوال التى يرجح أنها لم تصدر عنه ولكنها تعبر عن أفكاره فقد طبعت باللون الرمادى ، وأخيراً طبعت باللون الأسود الأقوال التى يعتقد العلماء أنها لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه .

والمفاجأة الكبرى أن الكتاب لم يتضمن سوى عبارة واحدة باللون الأحمر وهى : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (مارك : 17 ـ 12) »[1] .

فإذا كان هذا هو المرجع الذى كان موجوداً قبل نزول القرآن ولم يكن هناك سبيل إلى معرفة حقيقة عيسى ورسالته إلا بالرجوع إليه ، فكيف يمكن التحقق من شخصيته ـ عليه السلام ـ ؟ وهل يصدق الناس مقالة اليهود فيه ؟ أم يصدقون ما يقول النصارى فيه وهم لم يتفقوا على رأى بشأنه ؟

وفى الحق أن أى باحث لو رجع إلى الأناجيل وحدها ليتعرف على حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ فلابد أن يقع فى حيرة لا مخرج منها ويسقط فى ارتباك لا

(1) مجلة « يو . إس . نيوز . الأمريكية » العدد أول يوليو 1991 م ، صـ 57 .

نجاة منه ، وهذه بعض الأمثلة :

أولاً : لو أراد الباحث أن يتعرف على سلسلة نسبه فسيجد إنجيلين من الأناجيل المعتمدة لدى النصارى قد تحدثت عن هذه القضية ولكن مع اختلاف شديد وتناقض كبير ، علماً بأنهما معاً ينسبانه إلى يوسف النجار ، وهذا من شأنه أن يلقى بظلال الشك حول طهارة مريم ، لأن يوسف كان خطيباً لمريم ولم يكن زوجاً لها فكيف ينسب إليه عيسى ؟ هذه ملاحظة سريعة لكن لابد من الالتفات إليها .

ولتوضيح هذا التناقض حول نسب المسيح كما جاء فى الإنجيلين الذين عنيا بهذه القضية سنضع ما جاء فى الإنجيلين فى جدول بشكل متقابل يجعل المقارنة بينهما يسيرة ، وذلك على الوجه الآتى :

إنجيل متى [1]	**إنجيل لوقا** [2]
المسيح بن يوسف بن يعقوب . المسيح من نسل سليمان بن داود . آباء المسيح سلاطين مشهورون . بين المسيح وبين داود ستة عشر جيلاً .	المسيح بن يوسف بن هالى . المسيح من نسل ناثان بن داود . آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين . بين المسيح وبين داود واحد وأربعون جيلاً

فكيف يمكن الوصول إلى حقيقة نسب عيسى ـ عليه السلام ـ من خلال هذا الركام من المتناقضات ، علماً بأنه لا يوجد مصدر آخر يمكن الرجوع إليه لمعرفة الحقيقة ، ولو أن الأناجيل سكتت عن هذه المسألة لاستراحت وأراحت ولكنها لم تفعل وتركت الباحثين فى حيرة .

ثانياً : ما هى العقيدة التى دعا إليها المسيح ؟

إن الباحث عن إجابة لهذا السؤال الهام لا يجد فى الأناجيل المعتمدة سبيلاً واضحة للوصول إلى حقيقة العقيدة التى دعا إليها المسيح لأنه سيجد بين يديه كماً هائلاً من المتناقضات .

(1) متى : الفصل الأول .

(2) لوقا : الفصل الثالث .

ففى الأناجيل كثير من النصوص التى اعتمد عليها النصارى فى القول بألوهية المسيح منها ما يلى :

(1) عندما جاء الملاك بالبشرى لمريم جاء فى إنجيل لوقا النص الآتى : « (31) وها أنت تحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع (32) وهذا سيكون عظيماً وابن العلى يدعى وسيعطيه الرب الإله عرس أبيه داود ويملك على آل يعقوب إلى الأبد (33) ولا يكون لملكه انقضاء (34) فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لا أعرف رجلاً (35) فأجاب الملاك وقال لها : إن الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك ، ولذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله »[1] .

ومن الواضح أن هذا النص يتضمن نبوءة لم تتحقق وهى أن عيسى سيعطى ملك أبيه داود .

(2) فى إنجيل يوحنا ورد هذا النص : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله »[2] .

فهذه النصوص وغيرها تفيد بظاهرها ألوهية المسيح .

بينما توجد فى الأناجيل نصوص أخرى تؤكد وحدانية الله وأنه ـ سبحانه ـ لا شريك له وأن المسيح إنسان ورسول أرسله الله .

ومن تلك النصوص ما يأتى :

(1) فى إنجيل يوحنا أن عيسى ـ عليه السلام ـ خاطب الله ـ عز وجل ـ بهذه العبارات : « (3) وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، والذى أرسلته يسوع المسيح »[3] .

فهذه العبارات تدل بوضوح على أن الله واحد لا شريك له وهو الإله الحق وأن عيسى هو رسول الله .

---

(1) لوقا الفصل الأول : 31 ـ 35

(2) يوحنا الفصل الأول : 1 .

(3) يوحنا الفصل السابع عشر : 3 .

(2) وجاء فى إنجيل مرقس هذا النص : « (28) فدنا أحد الكتبة وقد سمعهم يباحثونه ورأى أنه أحسن فى الجواب لهم فسأله : أية الوصايا هى أول الكل (29) أجاب يسوع : إن أول الوصايا كلها اسمع يا إسرائيل إن الرب إلهنا رب واحد (30) فأحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى »[1] .

وهذه العبارات أيضاً تدل على أن المسيح يدعو بدعوة التوحيد .

ثالثاً : تحتوى الأناجيل على متناقضات كثيرة فى مجالات أخرى متعددة وهذه بعض الأمثلة :

(1) جاء فى إنجيل يوحنا هذا القول منسوباً إلى عيسى ـ عليه السلام :ـ « (31) وإن كنت أنا أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقاً »[2] .

وقد جاء فى نفس الإنجيل هذه العبارة : « أجاب يسوع وقال لهم : إنى وإن كنت أشهد لنفسى شهادتى حق »[3] .

والتناقض بين العبارتين واضح مع أنهما فى إنجيل واحد .

(2) جاء فى إنجيل لوقا هذا النص ـ « (26) وبينما هم منطلقون به أمسكوا سمْعان رجلاً قيروانياً كان آتياً من الحقل وجعلوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع (27) وكان يتبعه جمهور كثير من الشعب . . إلخ »[4] .

بينما جاء فى إنجيل يوحنا النص الآتى : « (16) حينئذ أسلمه إليهم ليصلبوه ، فأخذوا يسوع ومضوا به (17) فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع المسمى الجمجمة وبالعبرانية يسمى الجلجلة »[5] .

فهل الذى حمل الصليب هو سمعان القيروانى أم أن الذى حمله هو المسيح نفسه؟ لا شك أن التناقض هنا فى غاية الوضوح .

---

(1) مرقس الفصل الثانى عشر : 28 ـ 30 .

(2) يوحنا الفصل الخامس : 31 .

(3) يوحنا الفصل الثامن : 14 .

(4) لوقا الفصل الثالث والعشرين : 26 ـ 27 .

(5) يوحنا الفصل التاسع عشر : 16 ـ 17 .

(3) جاء في إنجيل متى هذا النص : « (5) هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأمرهم قائلاً : إلى طريق الأمم لا تتجهوا ومدن السامريين لا تدخلوا (6) بل انطلقوا بالحرى إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل . . إلخ »[1] .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من موضع من الأناجيل منها إنجيل متى نفسه حيث جاء فيه هذا النص : « (24) فأجاب وقال لهم : لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل »[2] .

وهذا النص ـ كما هو واضح ـ يفيد القصر والحصر أي أن مهمته لا تخرج عند حدود بني إسرائيل .

وهنا نشير إلى أن هذا النص يتفق مع ما ذكره القرآن الكريم على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ في بيان طبيعته ومهمته وذلك في قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم** . . . ﴾[3] .

بينما جاء في إنجيل متى نفسه ما يناقض ما سبق ، إذ جاء فيه أن المسيح خاطب تلاميذه قائلاً : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الأب والابن والروح القدس »[4] .

وجاء تأكيد لهذه الوجهة في إنجيل مرقس حين نسب إلى عيسى قوله لتلاميذه : « (15) وقال لهم : اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها (16) فمن آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يدان »[5] .

فهذا تناقض واضح ، والأمثلة على وجود تناقضات في الأناجيل أكثر من أن تحصى .

قصة عيسى ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم :

تبين مما سبق أنه لم يكن هناك سبيل مأمونة ولا مرجع واضح يطمئن إليه الباحث لمعرفة شخصية عيسى ـ عليه السلام ـ وحقيقة دعوته وهذا هو السر في

(1) متى : الفصل العاشر : 5 ـ 6 .
(2) متى : الفصل الخامس عشر : 24 .
(3) الصف : 6 .
(4) متى : الفصل السابع والعشرين : 19 .
(5) مرقس : الفصل السادس عشر : 15 ـ 16 .

تشعب الخلاف حوله على نحو ما بينا وذلك قبل نزول القرآن الكريم .

فلما بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنزل عليه القرآن كانت قصة عيسى ـ عليه السلام ـ ضمن القصص التى تصدى لها القرآن الكريم وقال فيها كلمة الحق ، وفصل فى النزاع القائم حول شخصيته ودعوته .

وما كان لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعرف شيئاً من ذلك إلا عن طريق الوحى فماذا جاء فى القرآن الكريم عن عيسى ـ عليه السلام ـ ؟

أولاً : رفض القرآن الكريم مزاعم اليهود وواجه الأكاذيب التى لفقوها فأبطلها بالحجج الدامغة واتبع القرآن الكريم طريقة لا نظير لها فى الإقناع والدفاع عن الحق .

فبدأ قصة عيسى ـ عليه السلام ـ بالحديث عن أمه قبل ولادتها ، فذكر أن امرأة صالحة من آل عمران الذين اصطفاهم الله ضمن من اصطفى من عباده الصالحين كانت حاملاً ، ولكى تتقرب إلى الله فقد نذرت ما فى بطنها ليكون خالصاً لله يخدم فى بيته وينشر دينه ، ولكنها عندما وضعت حملها فوجئت أنها وضعت أنثى وتحيرت ماذا تفعل للوفاء بهذا النذر ، وتوجهت إلى الله بالدعاء أن يحفظ هذه الأنثى التى ولدتها وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم ، وقد سمت هذه المولودة مريم هذه هى مريم وهذه هى أمها ، وهذا هو بيت أسرتها كله طهر واستقامة وطاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ .

وأما بيئتها التى نشأت فيها فإن أمها ذهبت بها إلى بيت الله وعرضت أمرها على رجال الدين القائمين على شئونه فوافقوا على قبول النذر ، ولكنهم تنازعوا فيما بينهم على من يكفل مريم ويرعاها ويقوم بتعليمها وتربيتها ، واتفقوا على إجراء قرعة فخرجت القرعة لنبى الله زكريا ـ عليه السلام ـ فكانت فى كفالته ورعايته بتقدير الله ـ عز وجل ـ .

وفى هذا يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا

مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) .

وفى هذه الآيات ما يدل على أن مريم ظهرت عليها أمارات الصلاح فى صباها فقد كان زكريا ـ عليه السلام ـ كلما دخل عليها المحراب الذى تتعبد فيه يجد عندها رزقاً عجيباً من رزق الله فيسألها : من أين جئت بهذا ؟ فتقول : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولقد بشرتها الملائكة بمنزلتها ومكانتها عند الله ـ تبارك وتعالى ـ ، وذلك فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (2) .

والقرآن يعرض القصة بهذا الشكل الدقيق الصادق لكى يقنع السامعين ـ دون عناء ـ أن مريم لا يمكن إلا أن تكون طاهرة عفيفة شريفة ، وفى ذلك أبلغ رد على أكاذيب اليهود عليهم لعنة الله .

ثم إن القرآن الكريم يلفت الأنظار هنا إلى أمر هام وغرض بارز من أغراض هذه القصة ألا وهو صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغ عن الله ـ عز وجل ـ ، وأنه رسول الله حقاً ، ذلك أن القرآن لا يكتفى بسرد القصة لإثبات طهارة مريم وبراءتها فقط وإنما ذكر واقعة لم تكن معروفة لأحد ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق الوحى ، وهى واقعة إجراء القرعة وخروجها من نصيب زكريا ـ عليه السلام ـ وذلك قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (3) .

وقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ جريمة اتهام اليهود لمريم بارتكاب الفاحشة ، وعدَّها ضمن جرائمهم الكثيرة والخطيرة التى ارتكبوها والتى سيعاقبون عليها ، وسمى القرآن الكريم هذه الجريمة بهتاناً عظيماً (4) يقول الله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَبِمَا

(1) آل عمران : 33 ـ 37 .
(2) آل عمران : 42 ـ 43 .
(3) آل عمران : 44 .
(4) البهتان : هو الاتهام الباطل بتهم جارحة .

نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾[1] .

ثانياً : بهذا المنطق السهل اليسير أبطل الله مزاعم اليهود .

وأما النصارى فقد سلك القرآن مسلكاً آخر لبيان العقيدة الصحيحة فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ وإزالة الشبهة التى كانت سبباً فى تشعب الخلاف حوله بين اليهود من جانب وبين النصارى من جانب آخر والتى كانت السبب أيضاً فى تشعب الخلاف حوله بين النصارى أنفسهم .

وهذه الشبهة نشأت عن عدم فهمهم لحكمة خلق عيسى من أم بدون أب ، وعلى ذلك اتهم اليهود أمه بارتكاب الفاحشة على النحو الذى ذكرناه والذى وصفه القرآن بالبهتان العظيم ورد هذا الاتهام بالحجة القاطعة وكان المسلك الذى اتبعه القرآن الكريم فى الرد على النصارى يرتكز على نقطتين :

النقطة الأولى : أنه لا يلزم عقلاً من كون عيسى ـ عليه السلام ـ قد ولد من أم بدون أب أن يكون ابناً لله ـ تبارك وتعالى ـ لأن الله بقدرته يفعل ما يشاء وقد خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من غير أم وخلق الناس من أب وأم وخلق عيسى من أم بدون أب .

وبذلك اكتملت القسمة العقلية ولم يبق هناك مجال لأى متفلسف أو مجادل أن يقول إن الله قادر على كذا وليس قادراً على كذا .

بل إنه فى ثنايا الحديث عن ولادة مريم ونشأتها أشار القرآن الكريم إلى أن الله بقدرته قد رزق زكريا ـ عليه السلام ـ بولده يحيى ـ عليه السلام ـ مع انعدام أسباب الحمل عند الزوج وزوجه فقد بلغ زكريا من الكبر عتياً واشتعل رأسه شيباً وامرأته عاقر ، فسبحان الله القادر على كل شىء .

وعلى هذا فشأن عيسى ليس أعجب من شأن آدم ، وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم فى قول الله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] .

(1) النساء : 155 ـ 156 .
(2) آل عمران : 59 .

ومما يلفت النظر أن القرآن الكريم استعمل العبارة نفسها عندما تحدث عن بشارة الملائكة لمريم بأنها سيكون لها ولد فعندما تعجبت من ذلك جاءها الجواب المنطقي المقنع يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] .

النقطة الثانية : قام القرآن الكريم بشرح كيفية حمل مريم بعيسى وكيفية ولادته وبيان حكمة الله فى ذلك وكيف واجهت مريم قومها بعد ولادته وهى تحمله بين يديها وكيف أنطقه الله فى مهده ليكشف عن حقيقته وعن مهمته المستقبلية وأنه بحديثه الذى أنطقه الله به وهو فى المهد قد دافع عن أمه وبرأ ساحتها من أى سوء يظن بها ووضع الأمر فى نصابه وقضى على كل أسباب الخلاف حول شخصيته ورسالته والدور المنوط به من قبل الله ـ عز وجل ـ.

ويظهر من العرض القرآنى الرائع سلامة المنطق وقوة الإقناع ووضوح الحكمة دون لبس أو غموض ودون أى طلاسم وألغاز .

وفى هذا يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

(1) آل عمران : 45 ـ 47 .

حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (1) .

وبعد أن وصل بنا القرآن الكريم ـ فى عرضه لهذه القصة ـ إلى هذا الحد من وضوح الرؤية وبعد أن كشف لنا عن وجه الحقيقة فقد جاء دور التعقيب على القصة واستخلاص النتائج التى أصبحت فى غاية الوضوح ، وهذا دأب القرآن فى عرضه لقصص الأولين .

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (2) .

وحين تعرض القرآن الكريم لذكر جانب من هذه القصة فى موضع آخر فإنه ختمها بذلك الختام الرائع المعبر عن الحقيقة فقال الله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (3) .

الخاتمة :

وبناء على هذا البيان الشافى فإننا نحن المسلمين نؤمن بأن عيسى بن مريم عليه السلام ـ هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، خلقه الله كما خلق آدم بالأمر الإلهى « كن » ونؤمن أن أمه طاهرة عفيفة شريفة طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين ، ونؤمن أن عيسى ـ عليه السلام ـ دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له شأنه فى ذلك شأن جميع الأنبياء والمرسلين .

وندعو أهل الكتاب إلى الإيمان به على النحو الصحيح الذى يقضى على الخلاف والشقاق ، كما ندعوهم لأن يتركوا الغلو فى شأن عيسى عليه السلام ، تنفيذاً لأمر الله تبارك وتعالى إذ يقول : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (4) .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(1) مريم : 16 ـ 33 .
(2) مريم : 34 ـ 36 .
(3) آل عمران : 62 .
(4) النساء : 171 .

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	5
أهمية القصة وتأثيرها	10
عناية القرآن الكريم بالقصة	13
قصص القرآن أحسن القصص	14
القصص فى التوراة والقرآن	16
أغراض القصة في القرآن	18
أولاً: إثبات صدق الرسول . .	19
ثانيا : بيان أن الدين واحد	20
ثالثاً : بيان كيفية تأييد الله لأوليائه	21
رابعاً : بيان قدرة الله ـ تعالى ـ	22
تكرير القصة في القرآن	27
خصائص القصة في القرآن	28
أولاً : البعد عن الحشو والزيادة	28
ثانياً : العمل على سمو الذوق الإنسانى	29
ثالثاً : الاهتمام بوضوح الأهداف	32
رابعاً : الجمال الفنى وسيلة وغاية	37
ختام القصة	41
المثال الأول : قصة الملأ من بنى إسرائيل	41
المثال الثانى : قصة موسى ـ عليه السلام ـ	41
المثال الثالث : قصة سليمان وملكة سبأ	42

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة